الدولة العثمانية

في

لبنان وسورية



حكم اربعة قرون

١٥١٧ — ١٩١٦

بقلم

بولس مسعد

سنة ١٩١٦

الدولة العثمانية

في

لبنان وسورية

حكم اربعة قرون

١٥١٧ — ١٩١٦

بقلم

بولس مسعد

سنة ١٩١٦

كلمة للمؤلف

في هذه النبذة صورة جليّة لماضي البلاد السورية . والماضي مرآة الحاضر . فللبصير اللبيب من مواطني" الاعزاء الذين يلتمسون الخير لوطنهم ان يسترشد بالعبر التي تتجلّى له في هذه المرآة الى النهج القويم الذي ينبغي له ان ينتهجه لابلاغ امته الى حيث تأمن تجدّد النكبات التي توالت عليها في الدور الاخير من تاريخها

وانا في روح الوفاق الذي سرى اليوم في جسم الامة السورية ما يمهد للصادقي الوطنية من السوريين واللبنانيين سبيل الخروج بها من المأزق الحرج الذي حشرها فيه اعدؤها ولا سيما اذا ما عرفوا ان يستخرجوا من ثنايا قضية الحلفاء الشريفة المشتركة موعظة لهم ترشدهم الى اصدقاء امتهم الحقيقيين

الدولة العثمانية

في لبنان وسورية

حكم اربعة قرون (١٥١٧ — ١٩١٦)

تمهيد

تنطوي صفحة هذا العام وبها تنطوي آخر صفحة من تاريخ المئة الرابعة للحكم العثماني في الديار السورية (١٥١٧ — ١٩١٦). فقد دخلت سورية في حيازة بني عثمان في منتصف الربع الاول من القرن السادس عشر بعد انقراض دولة المماليك[1] على يد السلطان سليم الاول الفاتح العثماني الشهير وبعد قرنين ونيف خروج الصليبيين منها[2]

وتاريخ سورية في عهد بني عثمان انما هو حلقة من سلسلة البلايا والارزاء التي توالت عليها في عصر المماليك فذهبت بالضرع والزرع واوردت البلاد موارد الضنك والشقاء. يتصفح المرء تاريخها في ذلك العصر فيخيل اليه انه يتصفح تاريخ العصور الاولى للبشرية. فيقف مبهوتاً حائراً ازاء ما يقع عليه نظره في ذلك السفر الضخم من اخبار تلك الحقبة الطويلة التي اجتازتها الديار الشامية وهي تتعثر باذيال الخطة

---

(١) يعرف هؤلاء المماليك بالبرجية أو الجركسية. أسس دولتهم الملك الظاهر برقوق المعروف بيلبغا الكبير سنة ١٣٨١ م وحكمت سورية الى سنة ١٥١٧ حيث دانت هذه البلاد لصولجان بني عثمان. وقد تخلل حكمهم لها فتن وحروب شديدة مزقتها تمزيقاً وقضت على البقية الباقية من مجدها. ودخلت هذه الفتن في القرن الرابع عشر وما يليه في دور مخيف محزن حتى فترت همم اهلها وفلّ عزائمهم الماضية ما توالى عليها من الكوارث والنكبات وباتوا لا يشعرون بضغط الحكام وتحكمهم برقابهم لان المصائب الفادحة التي نزلت بهم افقدتهم حاسة التأثر. وزادت حالة سوريا سوءاً على اثر غزوة تيمورلنك الطاغية المغولي الشهير لها سنة ١٤٠٠ وفتحه دمشق ودكها من اساسها وسبيه علماءها وصناعها الى آخر ما هو معلوم من اخبار تلك الغزوة

(٢) دخل الصليبيون الى سورية سنة ١٠٩٩ م وتملكوها زهاء قرنين صرفوهما في محاربة الدول الكردية والتركية ومملكة الروم ومن والى هذه الدول من امراء البلاد واعوانهم وكان عهدهم في الديار الشامية عهد رخاء ورقي بالقياس على ما عانته هذه البلاد في عهد اسلافهم واعقابهم من الشدائد والاهوال.

والهوان تحرق ابناءها فتن داخلية لا تخبو نارها وتتوالى اوساطها حروب خارجية ماحقة لا يخمد اوارها تفني الجيوش واحداً بعد آخر وتدمر الاقطار والامصار قطراً بعد قطر ومصراً بعد مصر ووزراء الدولة ونوابها في هذه البلاد التعسة منصرفون الى السلب والنهب وسفك الدماء اشباعاً لمطامعهم الاشعبية وزعماء الاحزاب والانكشارية في قاعدة السلطنة يكيدون المكايد ويعقدون للمؤامرات لخلع السلاطين والاستبداد من دونهم بشؤون الدولة على ماتشاء اهواؤهم وتقتضي به مآربهم واغراضهم

ظهر الاتراك عند استيلائهم على الديار الشامية والمصرية والعربية بمظهر الخلفاء الاولين فاجروا العدل بين الناس واقاموا دعائم سلطانهم على اساس الحلم والانصاف فاقالوا البلاد من عثرتها وانتشلوها من وهدة الخراب والاضطراب التي كانت دول الاكراد والمماليك والمغول قذفت بها اليها . لكنهم بعد انقضاء زمن الفتح واستتباب الامر لهم في هاتيك الديار فقدوا صفات الخلفاء الاولين لان هذه الصفات لم تكن من خلائقهم الفطرية ولم يألفوها في قصور السلاطين الذين تقدموهم وشادوا مجد دولتهم على اسنة الرماح وشفار السيوف ذاهلين عما ينبغي لارباب التيجان ان يتحلوا به من الفضائل الرائعة ليتمكنوا من توطيد اركان الدولة على اساس صحيح ثابت لا تقوى عليه صروف الدهر وكوارث الايام . فلم تتمكن لذلك هذه الصفات من نفوسهم الا على قدر ما كانوا في حاجة اليه لتهدئة الخواطر وذرّ الرماد في العيون حملاً للرعية على الاستسلام لمشيئتهم والخضوع لسلطانهم . وعلى هذا لم تكن بلاد الشام تطمئن الى حكم آل عثمان وتذوق طعم الراحة فترة قصيرة وتحمد الله على انقضاء زمن الشدائد والاهوال التي عانت مرارتها ودكّت الى الحضيض معالم مجدها حتى عادت الى اسوأ مما كانت عليه بجور السلاطين وجور نوابهم وعمالهم فيها فرجعت القهقرى وغرقت في لجة عميقة من الضنك والشقاء وقني الشعب السوري في الفتن والحروب الاهلية وحال اعتساف الحكام ووشاياتهم بعضهم ببعض وتحاسد الزعماء وتنابذهم دون سدّ ثلمتها واصلاح ما فسد من امورها . وجرى ذكر الحكام الذين تفوّقوا على غيرهم بالجور والاعتساف مجرى الامثال الى يومنا هذا نظير قراقوش والي حلب واحمد الجزار والي صيداء ويوسف باشا سيفا والي طرابلس وبني حمادة حكام المنيطره وبلاد جبيل وغيرهم ممن سنأتي على ذكرهم في ما يلي من فصول هذه النبذة

وقد ظلت سورية الى ايامنا هذه خاضعة للدولة العثمانية . الا انه تخلل عصر

العثمانيين فيها فتن وحروب اخرجتها من حكمهم الى حين ثم استرجعوا سيادتهم عليها كما سنبين ذلك فيما بعد

على ان في الشعب السوري نزعة شديدة الى الاستقلال كامنة فيه من أقدم أزمنة التاريخ ورثها من الآراميين والفينيقيين اجداده الاولين مع ما ورثه من ميزاتهم وفضائلهم واحتفظ بها احتفاظه بدمه بحيث باتت خلقاً فيه فتأصلت وشائجها في نفسه ونمت جرثومتها في صدره على رغم ما توالى عليه من النكبات الماحقة لكيان الشعوب والمميتة لمادة الحياة فيها فلم يستطع لذلك الوزراء والنواب الذين تداولوا ولاية سورية في عهد بني عثمان ان يستأصلوا من نفس الشعب السوري هذا العامل الحيوي العظيم الذي هو في اعتبار علماء الاجتماع اساس الحياة القومية . فظلت سلطة الامراء والحكام المحليين ولا سيما في لبنان على ما كانت عليه قبلاً فكانوا مستقلين في شؤونهم الداخلية على تمام حريتهم لا يرجعون الى الدولة الا في الامور الكلية الكبرى ولا سيما في عهد الامراء التنوخيين والمعنيين والشهابيين والالمعيين وبني سيفا وغيرهم فكان اولئك الامراء والمقدمون والمشايخ من ورائهم يقضون بين الناس بحسب مشيئتهم ومنازعهم والناس بين هؤلاء واولئك فرق واحزاب مختلفة المشارب متباينة الاغراض والمآرب

على ان ما كان سائداً بين هؤلاء الحكام من التقاطع والتحاسد وما كان يجري بسبب ذلك من الفتن الداخلية كان من اكبر البواعث على تداخل الدولة في شؤونهم وتوطيد سلطتها في هاتيك الربوع . ومن البلية ان الحكام كانوا يعلمون حق العلم ان المال في الدولة عماد الحق ودعامته الكبرى فكانوا يقدمونه في الاعتبار على حقوقهم الموروثة في الولاية فيتنافسون في احراز النصيب الاوفر منه واستمالة رجال الدولة بما ينفحونهم به منه طمعاً في الظفر بمساعدتهم لهم على بلوغ مناصب الحكم . وكان هؤلاء الطغاة السفاحون يتفننون في اساليب النهب والسلب اشباعاً لمطامعهم واملاء لجيوبهم من مال الرعية على يد اولئك الحكام . وقلما كان يستتب الامر لواحد منهم بغير المال . وكانت ولاياتهم واقطاعاتهم ودوائر حكمهم ونفوذهم تتسع او تضيق بنسبة الهدايا المالية التي كانوا ينفحون بها زمرة الوزراء والنواب . وكانت مباراتهم وبذلهم في هذا السبيل باعثاً لهم على ظلم الرعية وارهاقها بالضرائب الفادحة والرعية تئن تحت هذا النير الثقيل . وكثيراً ما كانت تنتقض على حكامها فيقاسون الشدائد في ردها الى الطاعة . واذا لم يكن لها قبل بمناهضتهم هجرت

اوطانها الى حين تأمن جورهم وتتقي نقمتهم وهو ما يعلل به انتقال جماعات كبيرة من جهة الى جهة اخرى من لبنان وسورية واستيطانهم لها الى اليوم . ومن نكد الطالع ان هذه العادة تأصلت في الديار الشامية الى عهدنا هذا مع ان اهلها يعلمون يقيناً انها في مقدمة البواعث الرئيسية على تقهقر بلادهم وبلوغها من الفوضى السياسية والانحطاط الادبي درجة ليس بعدها زيادة لمستزيد

ولو اتفق امراء سورية ومقدموها ومشايخها وعرفوا ان يستفيدوا من الاستقلال الداخلي الذي كانوا يستمتعون به في ذلك الحين لكان شأنهم مع الدولة السائدة فيهم غيره في ذلك العهد ولا سيما انهم ورثوا السيادة في بلادهم وعشائرهم اباً عن جد . ومن احرزها منهم بنفسه فانما احرزها بسيفه وقوة ساعده وفطنته وذكاء فؤاده . فلم يكن ينقصهم للاحتفاظ بها وتركها ارثاً ثميناً لاعقابهم الا شيء من التفاهم والاتفاق وهو لسوء الحظ ما لم يدركوه الى اليوم

على ان التاريخ والتقليد حفظا لنا من الآثار الطيبة التي خلفتها فئة كبيرة من اولئك الحكام ما يجمل بالابناء الذين ورثوا السيادة عنهم ان ينسجوا على منوالهم فيه . ولهذه الفئة من الفضل في بثها روح الوطنية الصادقة في صدور الابناء وبذرها في نفوسهم بذور الفضائل الرائعة والصفات الممتازة ما لا يسع المنصف جحده واغماطه . غير ان سيئات ذلك الحكم البائد الذي كان قائماً على شفار السيوف حطت من قدر تلك الفئة وطمست معالم فضلها واضاعت في ذلك التيار الجارف فضائلها . فاختلط الحابل بالنابل . ولم يعد بالامكان تمييزها عن غيرها من الفئات الفاسدة الضالة التي افسدت على الناس امورهم واغمطت فضل نوابغهم وفضلائهم وهي تؤلف الاكثرية المطلقة . ولهذا كان حكم المؤرخين الناقدين على ذلك العصر الذي نشأت فيه تلك الفئة عاماً شاملاً اخذ فيه البريء بجريرة المذنب

ومن الذين حكموا الديار الشامية في عصر العثمانيين الامراء التنوخيون والمعنيون وآل علم الدين اليمنيون والشهابيون واللمعيون وآل ارسلان وعساف وسيفا والمقدمون كبني المشروقي او الحصروني والعناجلة وبني الشاعر والمشايخ بنو جنبلاط وبنو حماده والخازن وحبيش والعازار وتلحوق وعبد الملك ونكد والضاهر والخوري والاعيان كآل العظم والمطرجي والعسر وبربر والاسعد وغيرهم . ولكثير من هؤلاء الامراء والمقدمين والمشايخ والاعيان حروب شهيرة مع وزراء الدولة ونوابها وعمالها . وكثيراً

ما كانوا يعصونها فتنابي الشدائد في خضد شوكتهم واخضاعهم كالامير فخر الدين المعني وجنبلاط باشا وأبي حلب والامير بشير الشهابي الكبير ويوسف بك كرم وغيرهم ممن سنأتي على ذكرهم في ما يلي . ولا يزال خلفاؤهم الى اليوم يقاومون النفوذ التركي في الديار الشامية ويصدون تياره الجارف . الا ان مقاومتهم للدولة خرجت عن طورها القديم وافرغت في قالب أدبي سياسي وهو ما كان اشد خطراً على نفوذها وسيادتها من المقاومة الحربية . ولنا في الثورة الفكرية الحاضرة التي نشأت عن المظالم والموبقات التي يرتكبها رجالها اليوم في الديار الشامية وألفت بين مختلف العناصر السورية في الداخل والخارج ما يحمل على الرجاء بان هذه البلاد داخلة قريباً في دور جديد ينسيها مساوىء هذا العصر الذي حملت نيره الثقيل على عاتقها سحابة اربعة قرون كاملة

سورية في القرن السادس عشر

﴿ الفتح العثماني ﴾ لما جلس السلطان سليم الفاتح العثماني الشهير على سرير السلطنة [1] كانت القوتان المادية والمعنوية في الجيش العثماني من الوهن والانحطاط لما ناله من الخسائر الفادحة في الحروب التي خاض غمارها والفتن التي قسمها بحيث لم يكن يستطاع التعويل عليه كثيراً لتدويخ الامصار وفتح الممالك التي كان هذا الفاتح المعظم يطمع باخضاعها لصولجانه . وكان الغازي شجاعاً باسلاً صادق العزيمة قوي الشكيمة شغفاً كاسلافه بالفتح فانصرف الى تنظيم الجيش وتعزيزه واذكاء نار الحمية في صدور قادته . ثم زحف به لمقاتلة الفرس وملكهم يومئذ شاه اسمعيل الشيعي — وكان فاتحاً عظيماً شديد البأس قوي المراس . فقاتله الفاتح العثماني سنة ١٥١٥ ودوخ بلاده واخضعه حتى أمن شره . ولم يكد يفرغ من قتال الفرس ويستتب له الامر في ولاياته البلقانية والاوربية حتى طمحت نفسه الى فتح الديار الشامية

---

(١) هو ثالث ابناء السلطان بايزيد الثاني . ولاه ابوه على طرابزون فلم يقنع بها وعصاه وزحف بجيش من التتر الموالين له على الروملي فدانت له وسمى نفسه سلطاناً على ادرنه . وما انفك عاكفاً على اضعاف سلطة ابيه حتى قوي عليه واستمال الانكشارية اليه . فشدوا ازره في ما وقع بينهما من النزاع وأفضى به الامر الى انتزاع الصولجان من يده وارغامه على الخروج من عاصمة ملكه شريداً طريداً (سنة ١٥١٢) الى حيث قضى نحبه . ونازعه اخواه العرش فقمع فتنتهما وأمن شرهما وفتك بمن وقع تحت يده من آل عثمان ليأمن غدرهم ويستبد بالدولة من دونهم

والمصرية . وكان ما آلى اليه هذان القطران الشقيقان في عهد المماليك من الضعف والانحطاط باعثاً له على استصغار شأنهما والتعجيل في اجتياحهما ولا سيما انه شعر بعدم انتظام امور هؤلاء المماليك فيهما وعجزهم عن الاحتفاظ بسيادتهم عليهما . فزحف على سورية بجيش عظيم (١٥١٦ — ١٥١٧) فالتقاه الملك الاشرف قانصوه الغوري من مماليك مصر — وهو يومئذ سلطان مصر والشام — في مرج دابق شمالي حلب ومعه الغزالي نائبه في دمشق والامير فخر الدين المعني الاول امير لبنان . فتسعرت نار الحروب واستمال الغازي ابن معن والغزالي اليه . فانحازا الى جانبه ورجحت كفته . فدحر جيش المماليك واعمل السيف في رقابهم ولقي الغوري حتفه في هذه الوقعة وخلفه ابن اخيه الملك الاشرف طومان باي (١) . ثم احتشدت جيوش الجراكسة عند غزة . فقاتلها الظافر وكسرها شر كسرة . ففر طومان باي الى البلاد المصرية ووقف هناك بفلول جيشه يستعد لمقاومة عدوه . فاستأنف الغازي العثماني زحفه وادركه . وكان في طليعة الجيش المصري خير بك احد امراء المماليك ونائب الغوري في حلب . فاستماله السلطان سليم اليه ووعده بان يوليه على مصر ان هو خان مولاه . فانحاز برجاله الى الغازي وقاتل في صفوف جيشه . فظفر بجيش الجراكسة ونكل به واستأسر الملك طومان وشنقه (١٥١٧) وبه انقرضت دولة المماليك البرجية او الجركسية وتم للسلطان سليم ما هي النفس به من التسلط على مصر والشام

على ان السلطان لم ينزع الحكم من ايدي الامراء والحكام الذين كانوا يتولون البلاد المصرية والشامية لئلا ينتقضوا عليه فيجرعونه الغصص قبل ان يقمع ثورتهم ويردهم الى طاعته . فأقر اكثرهم في ولاياتهم واقطاعاتهم بعد ان فرض عليهم جزية قليلة . فترك للمماليك في مصر مناصبهم الاربعة والعشرين وهي الاقطاعات التي كانوا يحكمونها بأمر ملوكهم . الا انه وضع لها نظاماً مماثلاً لنظام الولايات العثمانية واطلق عليها اسم سناجق . ولم يقض في وادي النيل الا على سلطة المماليك العليا . وجعل خير بك نائباً له في مصر مكافأة له على انحيازه اليه في حربه مع طومان بك .

---

(١) هو السابع والاربعون من ملوك الترك والثاني والعشرون والاخير من ملوك الجراكسة مصر والشام

كانوا يعاملون خسفاً وظلماً (١) . وبعد ان فرغ السلطان من تدبير شؤون سورية الجنوبية سار الى حلب فنظم شؤونها وعاد الى القسطنطينية . وما لبث ان نفض عنه غبار السفر حتى طمحت نفسه الى فتوحات جديدة وصحت عزيمته على فتح جزيرة رودس واجتياح بلاد الفرس ثانية فعاجلته منيته سنة ١٥٢٠ قبل ان يدرك امنيته

﴿ ولاية الامراء المعنيين وبني عساف وسيفا ﴾ بعد انقضاء زمن الفتح وعودة السلطان سليم الى عاصمة ملكه رجع الامراء والحكام في لبنان وسورية الى ما كانوا عليه من الانقسام وتنازع السلطة وعادت الفتن فيهما الى عهدها السابق . فساءت حالهما وقُضي على ما كان علقه الناس على العهد الجديد الذي دخلا فيه من الآمال البعيدة والاماني الطيبة

وأول من ذكره المؤرخون من الامراء الذين عاصروا السلطان سليم وخلفاءه الاولين الامراء بنو عساف وبنو معن وبنو سيفا . ولذلك رأينا ان نقدم اخبارهم على اخبار غيرهم من الامراء الذين تداولوا الحكم في لبنان وسورية :

كان الامير عساف منصور التركماني يصطاف في عين شقيق احدى مزارع صرود كسروان ويصرف الشتاء في بين طوره . وجماعته ينزلون الازواق (زوق مكايل وزوق مصبح وزوق الخراب) على ساحل البحر . وولايته تتناول البقعة الواقعة بين نهر الموت بقرب بيروت والنهر البارد على مدى قريب من طرابلس (٢) . فلما اقرّه السلطان سليم على ولايته اتخذ بلدة غزير قاعدة لها وابتنى له فيها داراً فخمة وبجانبها

---

(١) كان في جملة الذين لجأوا الى لبنان في ذلك العهد قوم من متاولة بعلبك . جاءوا الى كسروان واستوطنوا فاريا وعراجل وبقاعة عشقوت . ثم تكاثر عددهم حتى ملأوا صرود كسروان ولا سيما جبة المنيطرة وتملكوها . وانتقل جماعة من المسلمين السنيين الى فتقا وساحل علما ورشميا وعرامون وجديدة غزير وفيطرون حيث يوجد الى اليوم جماعة منهم . ونزح دروز الصرود الى برمانا وبعض مزارع كسروان الجنوبية . وانتقل فريق من نصارى المجدل وطرابلس الى عرامون . ونزح غيرهم من قرية باروح الى ذوق كسروان فاستوطن قسم منهم قرية الكفور وحل القسم الآخر في غزير ومنه الشيخ حبيش بن موسى مخائيل الذي كان لذريته شأن يذكر في عهد امراء لبنان ولا سيما في عهد بني عساف وبني سيفا وبني معن

(٢) ينتسب امراء بنو عساف الى قبائل كردية أقامها سلاطين الشام في ساحل لبنان لصد غزوات الافرنج عن الديار الشامية وقد حكموا ٢٨٤ سنة (١٣٠٦ — ١٥٩٠) وخلفهم في ولاية غزير الامراء بنو سيفا الاكراد سنة ١٥٩٣ كما سيجيء

سنة ١٥٦٦ وخلفه ابنه سليم الثاني . ويعد السلطان سليمان من أعظم سلاطين آل عثمان

واظهر ما اشتهر به عهد السلطان سليمان في الديار الشامية انه في سنة ١٥٢٨ وقعت بين بني شعيب اصحاب عرقا وبني سيفا امراء عكار [1] نفرة افضت الى اقتتالهم فاستنجد بنو سيفا على اعدائهم الامير قرقماس المعني امير الشوف [2] وانجدهم الامير منصور عساف برجاله فنكلوا ببني شعيب وعادوا الى عكار . وكان والي طرابلس يومئذ محمد آغا شعيب فساءه انتصار الامير منصور لبني سيفا على قومه وعشيرته وهم بالانتقام منه . فانفذ اليه ابن عساف الامير عبد المنعم ابن عمه والشيخين يوسف وسليمان حبيش اللذين كان استعادهما من منفاهما في مصر وأغدق عليهما نعمه وعطاياه . فقتلوا ابن شعيب شر قتلة وامن الامير الساقي غدره . على ان ذلك لم يكن كافياً لالقاء الرعب في قلوب اعوانه وحملهم على الاخلاد الى السكينة فمضاه منهم حاكما جبيل والبترون ففتك بهما وعين مكانهما حاكمين من قومه وبذلك استتم نقمته من بني شعيب وأعوانهم وقضى على سطوتهم قضاء مبرماً

مع فرنسا والبندقية الحلفتين اللتين ذكرناهما في الذي . وزادت حلفه مع فرنسا احكاماً على عهد هنري الثاني بن فرنسوا الاول وحاربت جيوشهما معاً تحت راية واحدة

(١) ينتسب آل سيفا كبني عساف الى قبائل كردية اسكنها سلاطين الشام في ساحل لبنان من صيداء الى طرابلس لترد عن البلاد غزوات الصليبيين . وكان بنو سيفا يحكمون في بدء امرهم بلاد عكار . ولما انقرضت سلالة بني عساف افضى الحكم في كسروان اليهم (١٥٩٣) . وأشهر رجال هذه الاسرة يوسف باشا سيفا وهو اول من تولى طرابلس من الباشوات

(٢) الامراء المعنيون بطن من بني ربيعة ويعرفون بالعرب الايوبية نسبة الى زعيم منهم يدعى ايوب كان فارساً مغواراً . فاخرجه سادة ربيعة حسداً من بينهم واضطروه الى الرحيل عن بلاد نجد وديار ربيعة حيثما كانوا ينزلون بعشائرهم فحل في الجزيرة الفراتية وتكاثر نسله هناك وانتقل امير من سلالته الى جهات حلب ومات بعد ان خلف ولداً سماه معناً وهو أصل الامراء المعنيين واليه ينتسبون . ولما اجتاح الافرنج سورية الشمالية أخذ الامير معن يغزوهم بعرب الايوبية حتى عظم أمره . ثم ظفر الافرنج به فارتحل بعشائره وقومه الى سهل البقاع واتصلت شهرته بطغتكين صاحب دمشق فخلع عليه وصادقه وانزله جبل الشوف لحماية البلاد من غارات الافرنج وكان الجبل مقفراً خاليا من السكان فجاءه الامير معن (١١١٨ م) واستعمره بمساعدة آل تنوخ أمراء الغرب وعميدهم يومئذ الامير بحتر جد الامير زهر الدين فاتخذه الامير معن حليفاً له وعضداً على الافرنج فاشتركا في شن الغارة عليهم حتى اخرجاهم وسدا عليهم سبل الهناء . وأرسل الامير زهر الدين الى الامير معن عمالا اقاموا له ولخاصته الابنية الحجرية فسكنوها واعتزلوا المضارب والخيام وذاع أمره في البلاد فتقاطر الناس الى جبل الشوف من كل فج وغص بالسكان وحكمه زهاء ثلاثين سنة وأقام الامير معن اولا في بعقلين ثم انتقل خلفاؤه الى دير القمر وجعلوها قاعدة لولايتهم . وخلفه ابنه الامير يونس وخلف هذا ابنه الامير فخر الدين الاول ابو الامير قرقماس المعني الذي سبقت الاشارة اليه .

وفي سنة ١٥٣٣ شبت بين اليمنية والقيسية في بلاد جبيل وجبة المنيطرة فتنة كبيرة انجلت عن فوز الاولين وقتل في هذه الفتنة مالك بن غيث اليمني شيخ العاقوره . وكان للحزبين فيها انصار واعوان يتنازعون السلطة والنفوذ . فذعر اهلها وخرجوا منها لا يلوون على شيء ففرّ اليمنية الى دمشق يستغيثون بنائبها . وفرّ القيسية الى طرابلس . وخلت العاقورة من السكان سبع سنين الى ان استمرها الشيخان ايوب ونضول ابنا الشماس توما العاقوري باسم نائب دمشق واعادا اهلها اليها وتوليا امرها (١) . ولجأ هاشم العجمي القيسي حاكم جبيل بفريق من جماعته القيسية الى بعلبك واصحابها اذ ذاك الامراء بنو الحرفوش فامنوه على حياته . وبعث نائب دمشق فعهد الى الامير منصور عساف بمعاقبة قاتلي مالك اليمني . فانفذ هذا عبد المنعم ابن عم هاشم العجمي واخا مالك للقبض على هاشم وجماعته . وكان بنو الحرفوش ناقمين على الامير منصور يتحينون الفرص لاهلاكه والقضاء على سطوته . فعاهدهم عبد المنعم على الايقاع به ان هم قتلوا هاشماً . ففتك الحرافشة بهاشم ورموا بجثته الى بئر هناك تعرف الى اليوم بئر هاشم . اما عبد المنعم فادرك الامير منصور مأربه قبل ان ينفذه فيه . فاحبط مسعاه بان امر الشيخين الحبيشيين ففتكا به واوقعا بجماعته واراحا الامير من شره . وطاب خاطر الامير فعهد اليهما بتدبير شؤون حكومته وجعلهما كاخيين له مكافأة لهما على صدقهما في خدمته . على ان مكائد حساد الامير العسافي لم تكن لتقف عند هذا الحد . ففي سنة ١٥٤١ تآمر المقدم مخائيل حاكم زوق مكائيل وبنو حنش حكام فتقا على الايقاع به فاحبط مسعاهم وفتك بهم

جلس السلطان سليم الثاني على عرش بني عثمان (١٥٦٤ — ١٥٧٤) وفي

وتعاقب الامراء المعنيون من بعده على حكم بلاد الشوف وعظمت شوكتهم حتى تناولت ولايتهم جبل لبنان وما جاوره من البلاد شمالاً وجنوباً من حدود حلب الى صيداء . وكان لهم منزلة رفيعة عند سلاطين آل عثمان فيخاطبون حكامهم كما يخاطبون الوزراء ورجال الدولة العظام . وقد عظم امرهم في حروبهم مع الافرنج وولاة سورية ولبنان وهم فيما نعلم أعظم أمراء الديار الشامية في عهد بني عثمان . وانقرضت دولتهم سنة ١٦٩٧ بموت الامير احمد المعني لانه لم يرزق ذكوراً بعد ان حكمت في لبنان ٥٧٩ سنة (١١١٨ — ١٦٩٧)

(١) يعرف المنتسبون الى هذين الشيخين من اهل العاقورة ببني الهاشم نسبة الى هاشم ابن الشيخ ايوب بن الشماس توما البكر لان هاشماً هذا كان أعز منزلة واكبر شأناً من اخويه ضاهر ورعد

نفسه من سوء التأثير مما عاناه والده من الشدائد في الحروب التي خاض غمارها ما حمله على الجنوح الى السلم . ثم تاقت نفسه الى الفتح وكانت قبرص أول هدف لمطامعه فاستفتحها سنة ١٥٧٠ عنوة بعد ان هلك في سبيل الدفاع عنها ٧٠ الفاً من حماتها الابطال في جملتهم ٣٠ الف (وقيل ٩٨ الفاً) لبناني . وشعر بعجزه عن قهر النمسا بمن سلم من جيشه في فتحه هذا فصالحها على شروط جاءت في مصلحته . وحالف فرنسا اسوة بابيه . وانبرى لمنازلة البنادقة فقهروه وسحقوا اسطوله بمعاونة اسطولي اسبانيا ومالطة . ثم اعاد الكرة عليهم فاجتنبوا القتال وصالحوه سنة ١٥٧٤ وتخلوا له عن قبرص . وارغم الاسبان على الجلاء عن تونس بعد ان مثل في اهلها تمثيلا فظيعاً كان خاتمة سيئة للمملكة

﴿ سطوة بني عساف ﴾ وفي عهد هذا السلطان سادت السكينة النسبية انحاء لبنان وسورية . فاراد ان يريح باله من شر الفتن التي كان وزراء الدولة وعمالها في هذه الديار يضرمون نارها جرّاً للمغانم لينصرف الى الحروب التي أصلاها عليه البنادقة والاسبان وغيرهم . فاوصد دونهم باب السعايات وأمنت البلاد شرّهم ردحاً من الزمن . وفي ايامه عظمت شوكة الامير منصور عساف وتوطدت اركان سيادته فتهيبه الامراء والحكام خوفاً من بطشه واجتنب الولاة التحرش به اشفاقاً على سلطتهم من سطوته . فتوافرت في هذه الفترة لمعظم اهل البلاد السورية اسباب الراحة والهناء ولم يقع فيها مما وقع في عهد السلطان سليمان من الحوادث المشؤومة الا ما كان ينشأ عادة عن جباية الاموال كما حصل سنة ١٥٧٢ في جبة بشري حيث هجر اهل سبع قرى اوطانهم على أثر فرض الامير منصور عساف عليهم ضريبة باهظة أثقلت كواهلهم ولم يكن له بدّ منها لدفع المال المطلوب للخزينة السلطانية ولنواب السلطان

أما في عهد خلفه السلطان مراد الثالث (١٥٧٤ — ١٥٩٤) فعادت الدولة العثمانية الى شر ما كانت عليه من الاضطراب . فقد جلس على العرش وريح الفتن تهب في انحاء شتى من السلطنة فاضطر ان يسالم اوربا حباً في اراحة نفسه من مشاغل الحروب وويلاتها . فهادن النمسا وابرم مع فرنسا والبندقية عهدتين اعترف لهما فيهما بحقوق جديدة في سلطنته وألحقهما بعهدة اخرى ابرمها مع انكلترا . فعد الانكشارية جنوحه هذا الى السلم ضعفاً منه فعصوه مراراً وعظمت شوكتهم واحدثوا في السلطنة كثيراً من المشاغب والفتن التي ضعضعت احوالها وافضت بالسلطان الى صرف اذهانهم الى

حرب خارجية يدرأ بها شرهم عن العرش . فحارب العجم واستفتح عاصمة الشاه وظلت الحرب سجالا بينهما الى سنة ١٥٨٥ اذ عقد الصلح في مصلحة الدولة . ثم حارب النمسا سنة ١٥٩٣ وتراوحت كفة النصر بين الجانبين الى ان خلع طاعته الفلاخ والبغدان وترنسلفانيا فغلب على امره واضاع قسماً كبيراً من ممالكه الاوربية والبلقانية (١)

ولم تكن سورية في عهد هذا السلطان باحسن حظاً من سواها . فقد تفشى فيها داء الطاعون سنة ١٥٧٩ وحلّ الضيق باهلها واشتدت وطأة الغلاء حتى بلغ ثمن اردب القمح ١٥٠ قرشاً وهو ثمن فاحش جداً اذا قسناه على حالة البلاد في ذلك العصر وازى في قيمته النسبية ما بلغه في هذه الايام من الارتفاع في الديار السورية

﴿ تعاظم نفوذ بني سيفا وتضاؤل سطوة آل عساف ﴾ وكانت ايامه شؤماً على الامير منصور عساف فتذرع نوابه في سورية بما فعله باعدائه للحط من قدره لديه . ورأى السلطان ان يجعل طرابلس ولاية ويرفع شأن حاكمها بحيث لا يكون دون الامير منزلة ومقاماً فيضعف بهذا التكافؤ نفوذه وينحط شأنه فيأمن جانبه . فولى عليها يوسف باشا سيفا التركماني واوعز اليه بلسان نوابه ان يعمل على الحط من قدر ابن عساف جهد طاقته . فاضطهد ابن سيفا اعوان الامير ولا سيما الشدياق خاطر الحصروني مقدم جبة بشري وشريكه المقدم مقلد المعروف بالحسيناني من المقدمين الناحلة وكانا من خاصة هؤلاء الاعوان وأعظمهم شأناً في ولاية ابن عساف . ففرّ مقلد الى بلاد الشوف ومات هناك . ولجأ المقدم خاطر الى بعلبك وظل فيها الى أن اضطر سيفا باشا ازاء ما شهده من سطوة عشيرته وانصاره الى استرضائهم برده الى ولاية الجبة وجعل الشدياق باخوس بن صادر الحدشيتي شريكا له فيها (٢)

---

(١) ان المعاهدات التي ابرمها سلاطين آل عثمان مع ملوك اوربا في القرن السادس عشر كانت أساساً لما احرزته الدول الاوربية في الممالك العثمانية من السطوة والنفوذ اللذين احتفظت بهما الى ايامنا هذه . وقد أحرزت الدولة الفرنساوية منهما ما عجزت دونه غيرها بدليل ما جاء في شروط العهدة التي ابرمها السلطان مراد الثالث مع ايزابل ملكة انكلترا من انه سمح للسفن الانكليزية برفع العلم الانكليزي عند دخولها المرافئ العثمانية بعد ان كانت لا تدخلها الا وعليها العلم الفرنساوي

(٢) ان المقدمين في لبنان بلغوا من بسطة الجاه والنفوذ ولا سيما في القرنين الخامس عشر والسادس عشر ما كان يضطر الوزراء والامراء أن يحسبوا لهم حساباً كبيراً . وقد اشتهر

﴿ نكبة بني معن الاولى ﴾ ولم تطل بعد ذلك ايام الامير منصور عساف فتوفي سنة ١٥٨٠ وخلفه ابنه الامير محمد . اما يوسف باشا سيفا فلم يكد يبسم له الدهر حتى عزل عن ولاية طرابلس وعاد الى عكار . وحدث بعد ذلك ان عصابة من اللصوص سطت على خزينة السلطان في جون عكار ونهبتها . ونمي الخبر الى السلطان على وجه يوهم ان العصابة فعلت ذلك باشارة امراء الدروز وغيرهم من حكام البلاد وفي جملتهم الامير محمد عساف . فامر نوابه في مصر ودمشق وحلب بحشد جيش كبير لتأديبهم . فاجتاح جعفر باشا الطواشي بلاد عكار . وسد ابراهيم باشا والي مصر سبل النجاة على الدروز . فاشفق الامراء على سلطتهم من بطش ابراهيم باشا واستسلموا له . ولم يتخلف الا الامير قرقماس المعني فلجأ الى مغارة جزين الشهيرة ودهمه وهو فيها مرض اودى بحياته . وكان له ابنان فخر الدين ويونس . ففرَّ بهما الشيخ كيوان الديراني مدبر ولاية ابيهما الى كسروان حيث آواهما الشيخ ابو صقر ابراهيم الخازن الى ان انفرجت حلقات الازمة عن بني معن فعادا الى عبيه ونزلا على خالهما الامير سيف

منهم في هذه الحقبة المقدم يعقوب بن أيوب الذي ولاه على جبة بشري الملك الظاهر برقوق فحكم ٤٦ سنة . وتعاقب اولاده واحفاده على ولايتها وهم المقدمون سيفا وقرومزهر وعبد المنعم الاول وعبد المنعم الثاني الذي توفي سنة ١٤٩٤ تاركا الحكم لابنه يوسف ابي المقدم الياس الذي دانت البلاد في عهده لصولجان بني عثمان (١٥١٧) وخلفه ابنه يوحنا المعروف بعبد المنعم الثالث فنازعه الولاية كمال الدين المعروف بابي عجرمه ففتك به عبد المنعم سنة ١٥٣٧ لكنه لم يستتب له الامر طويلا فانتقم منه الحادية وبنو قر من نصارى عين حليا وقتلوه غيلة مع اولاده وبذلك انقرضت ذرية المقدم سيفا وانتقلت الولاية الى آل قر وسمي مقدموهم عناحله . واول من تولى منهم المقدم رزق الله ولاه على الجبة الامير منصور عساف فانصرف الى تعمير البلاد ووقعت بينه وبين اخيه حاشينا نفرة افضت به الى قتله ثم قتل رزق الله هذا بامر قاضي طرابلس سنة ١٥٧٣ فاقام الامير منصور عساف اخاه داغرا وعساقا ابن اخيهما موسى مقدمين على الجبة . ثم قتل المقدم داغر بامر والي طرابلس وقتل المقدم عساف بامر الامير منصور وتولى البلاد أبو سلوب القربعي وأساء التصرف فعزله الامير وولى مكانه المقدمين مقلد الحسيناتي من المناحلة والشدياق يوسف أبا رعد المعروف بخاطر ابن الشدياق شاهين الحصروني بن الشدياق شاهين المشروقي الكبير الجد الاصلي لبني المشروقي الذين جاءوا من صدد الشرق الى جبة بشري في ولاية المقدمين سنة ١٤٧٠ وارتقوا الى منصب الحكم وهم خمسة فروع أصلية نشأ عنها كثير من الفروع الثانوية اتخذت اسماء مختلفة كبني الشدياق وعواد والسمعاني ومطر وفرحات وثابت ومسعد وركاث . وكان لهم شأن خطير في تاريخ لبنان . وقد تولى المقدم خاطر الى سنة ١٦١٢

الدين التنوخي [١] . ولما بلغا أشدهما استعادا ولاية الشوف وذكرا جميل الشيخ ابرهيم الخازن عليهما فجعله الامير فخر الدين مدبراً لحكومته وجعل اخاه رباحاً دهقاناً لاملاكه (١٦٠٠) وكان ذلك منشأ نجاح الخوازنة [٢]

وحكم بالاشتراك مع الشدياق باخوس الحدشيتي جد آل باخوس في كسروان ثم مع ابنه الشدياق فرج . وخلفه ابنه المقدم رعد فحكم بالاشتراك مع فرج هذا وخلف هذين المقدمين ابو عاشينا شلهوب الذي قتله الامير فخر الدين الثاني المعني مع ابيه عاشينا بعد ان ملأ البلاد فساداً وجوراً ومني بنو الشرقي على يده ويد سيفا باشا والي طرابلس بخطب جسيم ذهب باموالهم وارزاقهم واودى بحياة ثلاثة من ابناء المقدم خاطر

(١) يرتقي التنوخيون بنسبهم الى النعمان بن المنذر بن ماء السماء اللخمي ملك الحيرة . وهم ينتسبون الى تنوخ اشهر أمرائهم الذي ارتحل بهم الى الجزيرة الفراتية واطلق اسمه على المكان الذي نزلوه هناك . ثم انتقل قسم منهم الى بر حلب . قال ابن العبري في النسخة السريانية من تاريخه ما مؤداه انه لما جاء الهادي الخليفة العباسي المعروف الى حلب خفوا لاستقباله في موكب عظيم استرعى نظره وشق عليه أن يظهروا بهذا المظهر البديع وهم نصارى وعددهم يناهز خمسة آلاف فارس فاكرههم على الاسلام وأباه الليث أحد ابطالهم فقتله . وحدث بعد ذلك ان جابي اموال حلب انتهك عرضهم ففتك به نبا أحد امرائهم وارتحل بقبيلته الى لبنان حيث اختار لاقامته مكاناً يعرف الى اليوم ببرج نبا . وخاف الذين تخلفوا عنه انتقام والي حلب وكانوا عشر قبائل فلحقوا به الى لبنان وتفرقوا بين سواحل بيروت وبلاد الغرب والمتن وكانت مقفرة فاستعمروها . واشهر بني تنوخ علي باشا التنوخي الذي كان آغا الانكشارية في الاستانة وقد نبغ منهم الامير بحتر الذي حالف الامير معن وساعده على استعمار الشوف . وهو أبو الامير زهير التنوخي الذي عاصر الملك نور الدين زنكي صاحب دمشق وحالفه وحارب الافرنج ففتكوا بابنائه الثلاثة في حصن سرحمول . ومنهم الامير جحى الملقب بجمال الدين وقد افنى سني حكمه في محاربة هؤلاء الافرنج ومات سنة ١٢٠٤ . وتعاقب آل تنوخ على حكم بلاد الغرب وفي جملتها بيروت الى سنة ١٣٠٩ حيث فتك صهرهم الامير علي حفيد الامير علم الدين معن الرمطوني بولدهم فرضيه على انحيازه الى الحزب اليمنية وكان ذلك آخر عهدهم بحكم الغرب . وينتسب الى التنوخيين الامراء الارسلانيون من أصحاب الشوف وبنو فوارس وهم الامراء اللمعيون اصحاب المتن وسيأتي ذكرهم

(٢) ان الشيخين ابا صقر ابراهيم وابا صافي رباحاً هما ابنا الشدياق سركيس الخازن الذي انتقل سنة ١٥٤٥ من قرية جاج في بلاد جبيل الى البوار في الفتوح على عهد الامير منصور عساف . ثم انتقل الى بلونة ومات سنة ١٥٧٠ . وقد نبغ من سلالة ابراهيم ابنه خازن المعروف بابي نادر ولاه الامير فخر الدين على كسروان وجبيل وجعلهما ارثاً لذريته من بعده وخلفه ابنه نادر المعروف بابي نوفل فاشتهر بالحكمة والوقار وتوقد الذهن والغيرة وعاصر الامير ملحم المعني ابن أخي فخر الدين وابنيه أحمد وقرقماس وكان له عندهم منزلة سامية . وهو الذي

اما ابراهيم باشا والي حلب فسار الى عين صوفر وقتل من عقال الدروز ومشائخهم خمسمائة نفس . ثم واصل السير الى حلب مستصحباً الامراء الذين استسلموا له وفي جملتهم الامير محمد عساف ، ومضى بهم الى الاستانة فاكرمهم السلطان مراد واقرّهم على ولاياتهم

﴿ انقراض بني عساف وانتقال ولاية كسروان الى بني سيفا ﴾ وسنحت للامير محمد عساف فرصة للثأر لابيه من يوسف باشا سيفا فسار لقتاله سنة ١٥٩٠ . وكان ابن سيفا يرقب حركاته لئلا يأخذه على غرّة فاوقعه في كمين نصبه له بين البترون وعقبة المسيلحة وقتله به وبدد رجاله . وبموت هذا الامير انقرضت سلالة بني عساف وانقضت ولايتهم بعد ان حكموا ٢٨٤ سنة . وضبط يوسف باشا أملاكهم وتزوج « أم الامير محمد سيفا » أرملة القتيل وفتك باعوانهم وفي مقدمتهم سليمان ومنصور حبيش فلجأ ابناهما يونس وحبيش الى الامير محمد بن جمال الدين اليمني في الشويفات وولي ابن سيفا مكانهما على غزير المشائخ الحمادية واستصحبهم الى طرابلس لبعض الشؤون وهناك أوجس شراً منهم فرأى ان يشغلهم عنه والقى بينهم وبين انسبائهم بني المسراح في جبة المنيطرة فتنة كبيرة أفضت الى قتل الشيخ قانصوه حماده وتبدد رجاله وبذلك تم لابن سيفا ما اراده من كسر شوكة الحمادية والتخلص من شرهم الى حين

وفي سنة ١٥٩٤ مات السلطان مراد الثالث وخلفه ابنه السلطان محمد الثالث (١٥٩٤ — ١٦٠٣) والسلطنة في اضطراب عظيم تحدق بها المخاطر من كل جانب والامر فيها للانكشارية وأعوانهم . فرأى ان خير ما يصنعه لدرء الخطر عن تاجه ان

وهب اليسوعيين في عين طوره ارضاً أقاموا عليها ديرهم الشهير الذي افضى فيما بعد الى الرهبان العازاريين وبلغ من النفوذ وبسطة الجاه ما لم يبلغه سواه من الحكام الذين عاصروه . وقد انعم عليه البابا اسكندر السابع بلقب كافاليير وجعله لويس الرابع عشر قنصلاً لدولته في بيروت « ١٦٥٩ » وتوارث ابناؤه هذه القنصلية من أبي قانصوه فياض الى ابنه حصن الذي لقبه هذا الملك في البراءة التي اصدرها له بامير الموارنة الى ابنه الشيخ نوفل وهو آخر من تولى هذه القنصلية من بني الخازن . وقسم ولاية كسروان بين ابنائه الثمانية فتولوها من بعده وتركوها ارثاً لاعقابهم واخص ما امتاز به المشائخ الخوازنة حسن دفاعهم عن طائفتهم وشدة غيرتهم على مصلحتها وفي قيام حارسين منهم شاهري السيوف على باب الكنيسة عند انتخاب بطريرك الموارنة اشارة صريحة الى هذه الغيرة التي لاجلها لقبهم احبار رومية بحماة النصرانية في الديار السورية

كبيرة . وعظم شأن الصديقين في الديار السورية حتى غلا أيدي الامراء ووزراء الدولة فيها والقيا الرعب في قلوبهم . فاشفق السلطان ان يقضي نفوذهما واتفاقهما هذا على البقية الباقية من سيادته في البلاد فوطن النفس على محاربتهما لخضد شوكتهما واسترجاع السلطة منهما . غير أن الفتن التي عصفت ريحها في القسم الشرقي من السلطنة صرفت هم السلطان عن حوادث سورية الى حين . فعمد الى قمعها وعهد بهذه المهمة الى وزيره مراد باشا المعروف بقبوجي باشا . فزحف بجيش كثيف الى آسيا وكبح جماح العصاة ثم عاد سنة ١٦٠٧ الى سورية لاخضاع علي باشا جنبلاط فحاصر الشهباء وفتحها خدعة وأعمل السيف في من لم يستطع الفرار من أعوان العاصي وقهر جيشه وبدده أيدي سبا وعدده يناهز ٨٠ الفاً . وأمر الوزير بآل جنبلاط وفي جملتهم والدته وجواريه فبيعوا بيع السلع ثم لجأ هو الى الاستانة طائعاً فعفا السلطان عنه وولاه على احدى مقاطعات المغرب . وبعد أن أتم مراد باشا مهمته في حلب وأمن على سلطة الدولة في هاتيك الربوع من سطوة ابن جنبلاط عمد الى خضد شوكة صديقه الامير فخر الدين . واضطرته الفتنة الناشبة في الاناضول الى التعجيل في قمعها خوفاً من ان يندلع لسانها الى البلاد المجاورة فزحف بجيشه اليها سنة ١٦٠٨ . وانتهز ابن معن هذه الفرصة فنفحه بهدية مالية عظيمة القدر حملها اليه ابنه الامير علي فطاب الوزير نفساً وخلع على الامير الشاب وأنعم عليه بولاية صيداء بعد ان ألحق بها ولايتي بيروت وغزير وهما ولايتا الغرب وكسروان

❊ سفر الامير فخر الدين الى اوربا ❊ على ان الايام لم تصف طويلاً لابن معن . ففي سنة ١٦١١ توفي مراد باشا وخلفه في الصدارة نصوحي باشا . فبعث اليه الامير بهدية مالية أردفها بهديتين من الصابون والانسجة اللبنانية الفاخرة . فاستقل الوزير ذلك بازاء هديته الى سلفه وأضمر له الشر

وكان ابن معن نصير الامير يونس الحرفوش والامير احمد شهاب على أحمد باشا والي دمشق لدن اجتياحه بلاد بعلبك ووادي التيم ومحاولته رفع ولايتهما عنهما . وكان هذا الوالي من جهة أخرى عزل عمال عجلون ونابلس وحوران فثاروا

النكبة الى لبنان حيث لجأ الى صديق أبيه الامير فخر الدين المعني وصرف بقية حياته في الجبل وأقامت ذريته فيه الى اليوم وتولت الزعامة في احد حزبي الدروز الكبيرين (الجنبلاطية واليزبكية) اللذين تنازعا السيادة والنفوذ حقبة طويلة من الدهر

ومدهم فخر الدين بثلاثة آلاف مقاتل أوقعوا بعساكر احمد باشا وأعادوا الى هؤلاء العمال اقطاعاتهم هذه . فنقم الوالي على الامير وأوغر صدر نصوحي باشا عليه وكان الوزير يحين الفرص لصب جام نقمته على ابن معن . فصادفت وشاية الوالي هوى من فؤاده وزحف على سورية بجيش عظيم . وانضوى تحت لوائه ولاة الاناضول وحلب وطرابلس بعساكرهم واعوانهم . واذ بلغ الى دمشق استسلم له الامير يونس الحرفوش والامير احمد شهاب وابنه حاكم وادي التيم . أما الامير فخر الدين فلم يركن الى الوزير وآنس من نفسه عجزاً عن مقاومة جيش السلطان . فالتمس العزلة في البرية . فاعترضه الامير احمد شهاب متناسياً فضله عليه وقطع الطريق على ابنه الامير علي وبدد رجاله . فجمع الامير فخر الدين أعوانه في الدامور واستفزهم للقتال فلم ينجح . واذ سدت في وجهه أبواب الظفر أتى بعياله الى قلعة نيحا « شقيف تيرون » وحشد رجاله وأنصاره في قلعتي بانياس وشقيف ارنون بعد ان حصنهما أعظم تحصين . وعهد بحماية ابنه الى الشيخ عمر حاكم حوران وهو أحد العمال الذين استنصروه على والي دمشق يوم طردهم هذا الوالي من أقطاعاتهم على نحو ما قدمنا . ثم جمع مشائخ الشوف والمشائخ الخوازنة وغيرهم من أعوانه وفي جملتهم شقيقه الامير يونس وكاشفهم بعزمه على الرحيل الى اوربا ونصح لهم بالا يركنوا الى وزير السلطان ولا يغتروا بمواعيده وحثهم على الاتحاد والتآزر ليقووا على دفع الملمات عن بلادهم . ثم أبحر الى ايطاليا وبرفقته احدى زوجاته ومدبره الشيخ كيوان الديراني والشيخ ابو صقر الخازن (١) وانتقل الامير يونس بجماعته المعنيين من بعقلين الى دير القمر

﴿ نكبة بني معن الثانية ﴾ على ان ارتحال ابن معن عن لبنان لم يثن احمد باشا والي دمشق عن عزمه بل زاده قحة وجراءة على الاسترسال في غيه وتنفيذ غرضه

(١) قصد الامير فخر الدين الى توسكانا وكانت في ذلك العهد تحت ولاية ملوك فرنسا وبينه وبين دوقها مودة يرجع عهدها الى الوقت الذي كان تجار هذه الدوقية يرتادون فيه الديار السورية للاتجار فيلقون من حفاوة الامير بهم وترويجه لمتاجرهم ما احكم صلات المودة بينه وبين اميرهم . فبالغ لذلك دوق توسكانا ورجال دولته في اكرام امير لبنان وعين له مرتباً وانزله في اجمل قصور ليفورنو ووقف على خدمته حاشية كبيرة . ثم ان مقاطعة مسينا فاسبانيا فرحب به سلطانها واقام سنة في ضيافته ثم عاد الى توسكانا وسنحت له فرصة فركب البحر الى سورية لمشاهدة اهله ثم رجع الى توسكانا وبعد مدة عاد الى لبنان بعد ان اقام في بلاد الافرنج خمس سنين

في آله وأعوانه بمبادرتهم بضربة لاتقوم لهم بعدها قائمة . فولى حسين باشا سيفا على بيروت وشيخ مظفر عميد اليمنية على بلاد الشوف وابن البستنجي على صيداء — وهم ألد أعداء المعنيين . ثم زحف بمئة ألف مقاتل على بلاد الشوف ليستتم نقمته منهم . وحصر قلعتي شقيف أرنون وبانياس مدة خمسين يوماً . فاستقتل حاميهما في الدفاع وأرغموه على رفع الحصار عنهما من غير ان يظفر منهما بطائل . فذكى فشله هذا نار الغضب في صدره وأباح لعساكره اجتياح الشوف والتنكيل بسكانها . فهال ذلك الامير يونس المعني واسترضى الوزير بالمال فجلا بعساكره عن البلاد بعد أن ارتهن والدته ونفراً من خاصته ضماناً للمال الذي تعهد له به . غير انه لم يكد يهدأ روع الامير حتى اجتاح هذا الطاغية بلاد الشوف ثانية وأحرق دور المعنيين في دير القمر وفتك بمن كان هناك من اعوان ابن معن . فاعتصم الامير يونس بقلعة بانياس مع اربعمئة من وجهاء الشوف . وغزا الوزير وادي بسرة بقسم من جيشه فظفر الشوفيون به . ثم اعاد الكرة عليهم بجيش كبير فكالوا له ضربة اشد من الاولى فاشتد حنقه على بني معن وانصارهم وأطلق ايدي عساكره الى النهب والسلب واباح لهم اموال العباد وارزاقهم ودماءهم . فكانت مجزرة مريعة هائلة استمرت اربعة ايام متتابعة . ولولا مفاجئة هذا الطاغية نبأ اغتيال نصوحي باشا الصدر الاعظم وخوفه شر العاقبة لما رجع عن بلاد الشوف وفيها نسمة حية . وقد كان ما قدّره لنفسه من العقاب فعزل وجوزي على ما جنت يداه الاثيمتان .

﴿ رجوع فخر الدين واسترجاع المعنيين لسيادتهم ﴾ خلف احمد باشا على ولاية دمشق جركس احمد باشا (١٦١٣) فأمّن أهل الشوف على أرواحهم وأرزاقهم وولى عليهم الشيخ يوسف المسلماني من أعوان المعنيين . وطيب خاطر الامير يونس واطلق سبيل والدته ومن كان اعتقلهم سلفه من خاصته . وعهد الى الشيخين أبي نادر الخازن أوفى أصدقاء آل معن وضاهر حبيش بجباية مال الاشجار . واستدعى الامير فخر الدين من منفاه فعاد سنة ١٦١٧ الى لبنان بعد أن تغيب عنه خمس سنين . وذكر الامير يونس ما ناله من الشأن العظيم عند رجال الدولة فتفح الوزير بهدية مالية عظيمة القدر ووعده على مثلها مسانهة . ودك قلعتي الشقيف وأرنون الحصينتين الى الحضيض حملاً له على الركون اليه والوثوق بصدق ولائه . فانعم عليه الوزير بولايتي صيداء وبيروت وعلى الامير علي ابن أخيه بولاية صفد . وقد حافظ جركس باشا على

العهد الذي قطعه مع آل معن فامر حسين باشا سيفا بالتخلي للامير يونس عن ولايتي بيروت وكسروان فأبى واتفق مع الامير شلهوب الحرفوش وأمراء رأس نحاش على المقاومة . فقاتلهم المعنيون على عين الناعمة وهزموهم وهب اليمنية في أعبيه وأغميد وعين دارا لمقاومة القيسية أعوان آل معن . فقاتلهم هؤلاء وظفروا بهم ودخل الامير يونس بيروت فعاهده أعيانها على الولاء . ثم أنفذ رجاله الى بلاد الغرب والجرد والمتن فنهبوا القرى وحرقوها انتقاماً من أهلها لما اقترفوه من الموبقات في بلاد الشوف لدن اجتياح احمد باشا لها على نحو ما تقدم . ورأى الشيخ مظفر والي الشوف وابن سيفا ان لا قبل لهما بمناصبة المعنيين فانهزما باهلهما الى بلاد عكار ولم تطل أيام ابن سيفا بعد هذه النكبة فاغتاله قراقوش والي حلب سنة ١٦١٦ . وبذلك دانت البلاد لسلطة الامير يونس فولى على كسروان الشيخ أبا نادر الخازن ومملوكه ذا الفقار قائما في غزير ونصب العمال على بقية الاعمال

اما جركس باشا فعزل بعد تلك الحوادث المشؤومة بوقت قصير وتولى دمشق مكانه احمد باشا الجوخدار . فانتزع ولاية صفد من الامير علي المعني لتقصيره في نفحه بالهدية المالية التي يتقاضاها الولاة عادة لدى قدومهم الى سورية . وولى عليها حسين اليازجي (١٦١٧) فعظم الامر على ابن معن — وكان أبوه الامير فخر الدين عاد من توسكانا واسترجع ولاية الشوف وعزز مركز نجله . فحشد الامير الشاب رجاله وسار الى صفد فدخلها عنوة واسترجعها من اليازجي بعد ان فتك به وأعمل السيف في رقاب رجاله واسترضى وزير الشام بالمال فاستصدر هذا له أمراً من الاستانة بتوليته على صفد وصيداء وبيروت

هذا في الجنوب أما في الشمال فخلف المقدم خاطر الحصروني على ولاية جبة بشري ابنه المقدم رعد (١٦١٢) فحكم بالاشتراك مع المقدم فرج بن باخوس الحدشيتي . وخلفهما أبو عاشينا شلهوب من أنسباء المقادمة الذين كانت انقرضت سلالتهم بموت جمال الدين بن المقدم مقلد . فجار وبغى ونازعه الولاية نعمة وداود وجرجس اخوة المقدم رعد فتغلب عليهم بمعونة يوسف باشا سيفا وفتك بهم ونزح ذووهم الى جبة المنيطرة وخلا له الجو فحكم تسع سنوات

وفي أثناء ذلك شعر السلطان احمد الاول بدنو اجله وابنه عثمان حديث السن . فخالف العادة المرعية في وراثة العرش واوصى بالخلافة الى اخيه مصطفى . على ان

هذا السلطان لم يملك الا ثلاثة اشهر فتآمر عليه الانكشارية وخلعوه (١٦١٨) ونادوا بعثمان سلطاناً وسمي عثمان الثاني. وكان عمه أوغر صدر ملك فرنسا عليه لسوء تصرفه مع سفيره فاسترضاه وصادقه. وطمحت نفسه الى الفتح وكانت بولونيا نازعته سيادة البغدان فحاربها وعجز عن خضد شوكتها فارغمه الانكشارية على مصالحتها سنة ١٦٢٠. وحاول انتزاع السلطة منهم فاحبطوا مسعاه وخلعوه في السنة التالية واغتالوه واعادوا عمه السلطان مصطفى الى العرش فالقى مقاليد الامر اليهم مكرهاً فجاروا وبغوا واضطربت احوال السلطنة واستبد الولاة بالحكم فساءت حال الرعية وتولاها الجزع والقنوط فخاف اقطاب الدولة سوء المصير وخلعوا السلطان في السنة التالية لجلوسه على العرش ونودي بالسلطان مراد الرابع

﴿ نكبة آل سيفا الاولى ﴾ أما سورية في عهد هذين السلطانين فلم تكن اسعد حظاً من غيرها. ففي سنة ١٦١٨ تولى طرابلس عمر باشا الكتانجي وحاكمها يومئذ يوسف باشا سيفا فتخلى له عنها مرغماً واستبقى لنفسه ملحقاتها وقلب له ظهر المجن. فاستجار الوزير بالامير فخر الدين المعني. فزحف الامير برجاله الى اميون ومعه الشيخ ابو نادر الخازن حاكم كسروان. وفر ابن سيفا الى عكار فجدّ فخر الدين في اثره حتى ادركه وحصره في حصنها. غير ان شفاعة وزيري حلب ودمشق به واشفاق ابن معن أن تؤدي مقاومته لجيشهما الذي كان مرابطاً في حمص الى ما لا تحمد عقباه حملاه على رفع الحصار عنه بعد ان فرض عليه الجزية وتركه وشأنه. غير انه عاد بجيشه الى جبيل وكانت في عهدة ابن سيفا هذا فدك قلعتها الى الحضيض على عظم منعتها والحقها بولاية كسروان، ثم فتح قلعة اسمر جبيل وولى على بلاد البترون المقدم يوسف الشاعر. أما يوسف باشا سيفا فتمكن بالمال من استرجاع ولاية طرابلس. لكنه اضطر بعد حين الى التخلي عنها بامر وزير دمشق الى حسين باشا الجلالي. وعُهد الى كتخداه مصطفى أغا بحكم ملحقاتها وفي جملتها جبلة واللاذقية وبدك حصونها وقلاعها وضبط املاك ابن سيفا وارزاقه. فضاقت الحيل بهذا الطاغية ورأى أن لا مناص له من استرضاء ابن معن وخطب مودته فبعث اليه بابنه الامير حسن وكان الامير السيفي حسن الطلعة ذكي الفؤاد فانعطف فخر الدين اليه وازوج ابنه الامير علي المعني بابنته — وقيل بشقيقته. وكان هذا الزواج سبباً في عقد الصلح بين ابن معن وابن سيفا وأمن هذا

بطش فخر الدين فاطمأن باله وتفرغ لاصلاح شأنه مع الدولة فظفر ببغيته واسترجع ولاية طرابلس

غير ان حرص الدولة على قاعدة التفريق التي جرت عليها في سيادة ممالكها واستعباد رعاياها حال دون اتفاق الاميرين الى امد بعيد . ذلك ان الصدر الاعظم بعث سنة ١٦٢٠ يسأل الامير فخر الدين تحصيل المال السلطاني من يوسف باشا سيفا فسار ابن معن برجاله الى برج البحصاص لمطالبة ابن سيفا بالمال فولى مدبراً الى جبلة وحاول ارضاءه على يد ابنه حسن باملاك بني عساف في بيروت وانطلياس وغزير فلم يفلح . وشدد الامير في طلب المال منه فابى واستغاث بسليمان باشا والي دمشق وعرب حمص والبقيعة وتركمانها فشدوا ازره وقاتلوا ابن معن على النهر البارد فدحرهم وحاصر قلعة طرابلس فعجز دونها . وفي اثناء ذلك ارسل اليه الباب العالي خلعة وسأله الكف عن مطاردة ابن سيفا فرفع الحصار عن طرابلس وقفل راجعاً الى قاعدة ولايته

وكأن ما مرّ بابن سيفا من عبر الدهر وعظاته لم يكن كافياً لانابته الى رشده . فعاد الى اسوأ مما كان عليه من مشاكسة ولاة البلاد وحكامها وانزال البلايا السود بسكانها . على ان الايام لم تصفُ له طويلاً بعد تلك الضربة التي كالها له ابن معن . ذلك انه في سنة ١٦٢١ تولى طرابلس عمر باشا الكتخجي واشفق على سلطته من سطوة يوسف باشا سيفا فاستنجد عليه الامير فخر الدين . ولم يكن الامير الكردي نسي ما ناله من الذل على يد ابن معن فاعتزل الولاية مكرهاً ومضى باهله الى عكار . وبعث الامير المعني فطرد اعوانه من جبة بشري وولى عليها الشيخ أبا صافي الخازن وعلى عجلون ابنه الامير حسين وعلى حمص عمر بك سيفا . ولم يخلد ابن سيفا الى السكون فاوعز محمد باشا الكرجي الصدر الاعظم الى والي دمشق والامير المعني أن يقضيا على سطوته ويضبطا املاكه تسديداً لما كان مطلوباً منه للخزينة من الاموال الاميرية . واراد والي طرابلس أن يستوثق من ولاء ابن معن فتخلى له عن بلاد جبيل والبترون وجبة بشري والضنية وعكار . فزحف فخر الدين بجيشه الى طرابلس وبرفقته الامير محمد شهاب فرحب به عمر باشا اعظم ترحيب . واراد ان يستأنف السير الى عكار لمعاقبة ابن سيفا. ففوجئ بنبأ تولي قراحسين باشا الصدارة واسناده ولاية طرابلس الى عهدة عدوه هذا . فاضطر أن يعود من حيث اتى . وقد استعاد يوسف باشا سيفا ولايته وجدّ في جباية الضرائب تسديداً للاموال المطلوبة منه للخزينة واتى من ضروب الجور

والاعتساف ما حمل جماعات كثيرة من اهل جبة بشري على التماس النجاة في المهاجرة الى دمشق وحلب وغيرها . وكان عاشينا بن شلهوب مقدم هذه المقاطعة قد امعن في البغي والتحكم في الرقاب وبلغت به القحة الى نهب دير القديس توما في حصرون وقتل راهب من رهبانه . وكان الشيخ ابو صافي صاحب الكلمة النافذة فيها فقبض عليه وساقه الى فخر الدين فقتله ثم ألحق به والده (١٦٢١)

﴿ قهر فخر الدين لبني الحرفوش وطربيه وافنائه جيش دمشق ﴾ غير ان الامير فخر الدين لم يأمن على سمو منزلته وعظم شأنه وسلطانه دسائس حساده ومزاحميه من أمراء البلاد وحكامها . ذلك ان الامير يونس الحرفوش صاحب بعلبك وشي سنة ١٦٢٢ بعمال نابلس وعجلون الى والي دمشق فعزلهم — وكانوا يحكمون البلاد بامر فخر الدين . فنقم الامير المعني على ابن الحرفوش ونهب مزارعه في البقاع . فاستغاث هذا بوالي دمشق وعرض عليه ضعف المال المرتب على اقطاعي صفد وعجلون . فولاه على أولهما وولى صديقه الامير بشير قانصوه حميد بني طربيه على عجلون . ووالاهم الامير احمد طربيه والشيخ احمد الكناني من حكام تلك البلاد فاشتد ساعدها . وأوجس فخر الدين شراً من هذه العصابة فاوعز الى أعوانه باضرام النار في قرى عجلون والكرمل وزحف برجاله لمعاقبة آل طربيه . فانبرى له العرب عند نهر العوجاء وانتزعوا منه ما كان غنمه من اسلاب أعدائه فتقهقر الى خان جلجولية بعد ان مني بخسارة جسيمة . غير انه لم يطل به الامر حتى استصدر أمراً من الاستانة بتولية ابنه الامير علي على صفد . وحاول الامير يونس الحرفوش الوقوف في سبيله فهزمه ابن معن وأضرم النار في قراه وفي جملتها الكرك وسرعين وفتك بجماعة من أعوانه . فشق الامر على وزير دمشق وزحف في السنة التالية بعشرة آلاف مقاتل للانتقام من المعنيين . وانضوى تحت رايته الامراء الحرافشة وبنو سيفا . فالتقاهم فخر الدين وحليفاه الاميران علي واحمد الشهابيان صاحبي وادي التيم [1] برجالهم وأعوانهم عند

---

(١) الامراء الشهابيون بطن من بني قريش . وهم ينتسبون الى مالك الملقب بشهاب من بني مرة بن كعب . وقد تولى مالك هذا امارة حوران في خلافة عمر بن الخطاب . وتعاقب ابناؤه عليها الى اواخر القرن الثاني عشر حيث ارتحل بهم عميدهم الامير منقذ صديق السلطان صلاح الدين الايوبي الى وادي التيم (١١٧٢ — ١١٧٣) . وكان الافرنج انتزعوها من يد الامير زهير الدين التنوخي فاجلوهم عنها بعد معارك شديدة أسفرت عن اندحار الافرنج واعتصامهم بالجبال العالية . فعظم بذلك شأن الشهابيين لدى الملوك والامراء ولا سيما لدى نور

تبع عنجر في لبنان الشرقي . ودارت رحى الحرب . فاحرز بن معن فوزاً مبيناً وأفنى جيش دمشق عن بكرة أبيه واستأسر الوزير وعامله معاملة حسنة تليق بكرامة الامراء وقعت من نفسه أحسن موقع . فخلع الوزير عليه واقره على سناجق عجلون وصفد ونابلس والبقاع العزيز . وزحفا معاً على بعلبك لمعاقبة الامير يونس الحرفوش . ففرّ هذا الى معرّة النعمان حيث قبض عليه مراد باشا وزير حلب واعتقله في قلعة سلمية . وعاد الامير فخر الدين الى بلاده بعد أن فتح قلعة بعلبك الشهيرة ودمر قسماً منها . ثم غزا ابن معن وحليفاه المتقدمان بلاد عجلون ونابلس . فانبرى لهم عرب بني طربيه وحاربوهم وردوهم عنها الى صيداء وامعنوا في بلاد ابن معن قتلاً وسلباً وبلغوا في غزوتهم هذه الى ساحل عكاء . فحشد الامير المعني جيشه لرد الغزاة وارغم الامير بشير قانصوه وامراء العرب الموالين له على الدخول في طاعته

* * *

تبوأ السلطان مراد الرابع عرش بني عثمان سنة ١٦٢٣ وهو شاب ضعيف الارادة فاستأسر الانكشارية بالسلطة من دونه عشر سنوات متتابعة الى ان أتيح له ان يستردها منهم ويكبح جماحهم . وقد حارب العجم واستفتح بغداد ثم انتزعها منه الشاه عباس بخيانة بكير أغا رئيس شرطتها . فلم يطق صبراً على خروجها من يده وحاول استرجاعها فاخفق لخروج الانكشارية عليه وانصراف قسم من جيشه الى قمع ثورة اباظه باشا والي ارضروم (١٦٣٨) . على انه ظل عني النفس بادماجها في سلطنته الى ان مات الشاه وخلفه ابنه مرزا خان وهو حديث السن . فاستضعفه السلطان واستولى

الدين ملك دمشق وبني معن امراء الشوف . فحالفوهم وشاطروهم فخر الانتصار ومذلة الانكسار في الحروب التي خاضوا غمارها تحت راية واحدة . وصاهروهم وبهذه المصاهرة افضت ولاية لبنان الى الشهابيين من بعدهم (١٦٩٧) . وقد حكموا في انحاء شتى من الديار الشامية زهاء ثلاثة عشر قرناً تخللتها فترات قصيرة خرج فيها الحكم من يدهم . وجاء الفتح العثماني موطداً لدعائم سلطتهم حيث اقرهم السلطان سليم على اقطاعهم في وادي التيم مكافأة لخاله الامير منصور الشهابي على انحيازه مع الغزالي نائب الغوري في دمشق الى جانبه في وقعة مرج دابق الشهيرة التي كانت بدء القضاء على سلطة المماليك في الديار الشامية والمصرية على نحو ما تقدم . وآخر من نبغ منهم الامير بشير قاسم الكبير البطل اللبناني الشهير . وكان الشهابيون يدينون بالاسلام ثم اعتنقوا النصرانية فكانوا من اكبر انصارها في القرنين الماضيين وظلوا عليها الى اليوم . وقد افقدهم نظام لبنان الاخير (١٨٦١) امتيازاتهم القديمة ففقدوا شيئاً كثيراً من نفوذهم وثروتهم .

على همذان سنة ١٦٣٠ وحاول استرجاع بغداد فعجز دونها وثار عليه الانكشارية في سنة ١٦٣٢ فقمع ثورتهم وقتل زعيمهم خسرو باشا وانتقم منهم على وجه تقشعر له الابدان. فاستتب له الامر وامن الناس في انحاء السلطنة على ارواحهم وارزاقهم الى حين. ثم استأنف محاربة العجم واستفتح بعض مدنهم وحاصر بغداد سنة ١٦٣٨ وفتحها وارغم الشاه على التخلي له عنها في معاهدة الصلح التي ابرمت بينهما سنة ١٦٣٩ بعد تلك الحروب الهائلة التي استنفدت قوى الدولتين الشرقيتين واوردتهما موارد الهلكة والدمار. على انه لم يكد يهنأ بهذا الفتح المبين حتى وافته منيته في السنة التالية على حين كان يمني النفس باطيب الاماني وابعد الآمال. وخلفه اخوه السلطان ابراهيم (١٦٤٠ — ١٦٤٨)

﴿ نكبة بني سيفا الثانية وتقلص نفوذ الحرافشة ﴾ أما السوريون فقد نالهم في عهد السلطان مراد من البلايا والويلات ما لم ينلهم في عهد اسلافه. وكانت خلافته شؤماً على بني معن واعوانهم. فاحاطت بهم الارزاء احاطة السوار بالمعصم وقضت على سطوتهم في ديار الشام قضاء مبرماً. ذلك انه بعد ان امن الامير فخر الدين على سلطته في جنوب سوريا زحف بجيشه على بعلبك للقضاء على سطوة الحرافشة. ثم استأنف السير بطريق جبة بشري الى طرابلس. وكان قد افضى الحكم فيها الى الامير قاسم بن يوسف باشا سيفا (١) الد أعداء المعنيين. فدخلها ابن معن عنوة وأعمل رجاله فيها قتلاً ونهباً. ثم جلا عنها وولى الباب العالي عليها مصطفى باشا اسكندر فجار وبغى وولى على عكار الامير سلمان سيفا

وفي سنة ١٦٢٥ اقرّت الدولة الامير فخر الدين على ولاية بعلبك. فشق ذلك على الامير حسين بن يونس الحرفوش وسعى في استرجاعها بمساعدة والي حلب فاخفق مسعاه. وحاول الامير قاسم سيفا استرجاع ولايته على طرابلس فلم يفلح وقهره مصطفى باشا واراد أن يقضي على سطوة آل سيفا وانجده فخر الدين بجيش كبير سار فيه الى بلاد عكار بطريق البقاع ففر الامير سلمان سيفا من وجهه الى سلميه حيث قبض عليه صاحبها الامير مدلج والقاه في الفرات. فوقع الرعب في قلوب بني

(١) توفي يوسف باشا سيفا سنة ١٦٢٤ بعد ان حكم طرابلس ٤٥ سنة (١٥٧٩ — ١٦٢٤) تخللتها فترات قصيرة خرجت فيها من يده وخلفه على ولايتها ابنه الامير قاسم حاكم جبله. وكان له ابنان آخران الامير محمود حاكم حصن الاكراد والامير بلك حاكم بلاد عكار

سيفا وألقوا امرهم بين يدي ابن معن فعفا عنهم بعد أن عاهدوه على الولاء وتخلوا عن قلعتي المرقب وحصن الاكراد وهما أمنع حصونهم

﴿ اتساع ولاية فخر الدين وتعاظم امر المعنيين ﴾ وكان قد اتصل بالباب العالي ما كان من اجتياح فخر الدين لمدينة طرابلس . فزحف خليل باشا الصدر الاعظم بجيش عظيم على سوريا لمحاربة الامير . فاسترضاه وهو في حلب بالمال وتخلى له عن بعض الحصون في شمال سوريا . وكان فخر الدين على أتم وفاق مع عمر باشا الدفتردار الذي كان خلف مصطفى باشا على ولاية طرابلس . فاوجس الوزير شراً من اتفاقهما هذا وعزل الوالي لكنه ارضى ابن معن بفتكه بالامير يونس الحرفوش عدوه الالد . وانصرف بجيشه الى بغداد لمحاربة شاه العجم . فكان ذلك سبباً في تعاظم نفوذ فخر الدين وانبساط رواق مجده واتساع ولايته الى ما وراء طرابلس وملحقاتها حتى انطاكية (١٦٢٧) شمالاً وتدمر (١٦٣٠) شرقاً . وتعاظم امر ابنه الامير علي في الجنوب ولا سيما بعد ظفره سنة ١٦٣٢ بالامير احمد قانصوه أحد كبار امراء العرب في بلاد صفد

﴿ نكبة بني معن الثالثة الكبرى ﴾ وكأن الاقدار أبت على عميد آل معن الاكبر الاستمتاع طويلاً بثمرة جهاده المتواصل في سبيل المجد الذي احرز منه في تلك الحقبة شأو الوزراء العظام . فمنذ سنة ١٦٣٣ اخذ نجم سعده بالافول . ذلك ان وشايات حساده ومزاحميه به بعثت كجك احمد وزير دمشق على السعي بامر السلطان مراد الى خضد شوكته . فزحف على لبنان بجيش كبير ومر على وادي التيم فعاث فيها ونكب اهلها . فهب اصحابها الامراء الشهابيون للدفاع عنها بمعاونة الامير علي ابن فخر الدين وبطشوا بجيشه . واستقتل الامير المعني في هذه الوقعة فلاقى حتفه — وفي رأي بعض المؤرخين ان كجك احمد قتل في هذه الحرب وهو غير صحيح . واتصل خبر هذه النكبة بالسلطان فأمر باهلاك بني معن عن بكرة ابيهم . فابحر جعفر باشا من الاستانة بجيش عظيم . وانضوى تحت لوائه في بيروت آل سيفا وآل علم الدين ووافاه وزير دمشق بجيشه الى صيداء . فانهزم المعنيون من المدينتين واعتصموا بحصونهم . فجدّ جعفر باشا في اثرهم وفتح قلعة المرقب . ووقع الامير حسين ابن فخر الدين وصديقه الشيخ ابو نوفل الخازن في الاسر فارسلهما الى الصدر الاعظم في حلب . ثم فر ابو نوفل متنكراً وفتك وزير دمشق بالامير يونس اخي فخر الدين.

الا انه عجز عن ادراك ابنه الامير ملحم وظل طليقاً . واباح لعسكره دماء الشوفيين وارزاقهم وولى على بلادهم الامير علم الدين اليمني . ثم حاصر فخر الدين في قلعة شقيف تيرون فافلت من يده واعتصم بقلعة جزين — وكانت غاية في المنعة . فتمكن الوزير بخيانة احد خدمة بني معن من قبها واستأسره مع اولاده واعوانه وفي جملتهم الشيخ ابو نادر الخازن وعمه ومضى بهم الى دمشق حيث اطلق سبيل الشيخين الخازنيين . اما فخر الدين واولاده فارسلوا الى الاستانة واعتذروا للسلطان مراد فعفا عنهم وانزلهم في ضيافته . وانتهز الامير علي علم الدين هذه الفرصة للانتقام من المعنيين وانصارهم ففتك بكبارهم وضبط املاكهم ولم ينج من نقمته الا الشيخان ابو نادر الخازن وابنه ابو نوفل وعدد قليل من انصار بني معن. الا ان الخوازنة لم يأمنوا غدره بهم فالتمسوا النجاة بالسفر الى توسكانا (١٦٣٥) حيث نزلوا في ضيافة دوقها ثلاث سنين . على ان ذلك لم يكن كافياً لتسكين سورة غضبه فاغتال الامراء التنوخيين في عبيه وهو في ضيافتهم عملا بقاعدة سادته الترك وفي جملتهم ثلاثة اطفال انقرضت بهم سلالة بني تنوخ امراء الغرب

على انه لم يكد يستتب الامر لابن علم الدين في ولايته حتى نهض الامير ملحم المعني للاخذ بثأر عشيرته وقومه . واجتاح بلاد الشوف بجمع كبير من اعوانه القيسيين. ونشبت بينه وبين عدوه في ارض القبرط بجوار مجدل معوش معركة هائلة اسفرت عن اندحار اليمنية وفرار عميدهم ابن علم الدين الى دمشق وفشل الجيش العثماني الذي انفذه كجك احمد لانجاده بعد ان قتل قائده شر قتلة . ثم استأنف الامير علي علم الدين الكرة على ابن معن بمعاونة جيش دمشق واستظهر على فرقة من رجاله لكنه عجز بن القضاء على نفوذه وسطوته . واستغاث كجك احمد بالسلطان مراد فكبر عليه عطش الامير ملحم بجيشه ولم ير وسيلة للانتقام منه الا بقتل عمه الامير فخر الدين واولاده الثلاثة . وكان الصدر الاعظم اتى بابن فخر الدين الرابع الامير حسين من حلب الى الاستانة فلم تتناوله نقمة السلطان ونجا بنفسه . وعلى ذلك لم يبق من كبار آل معن بعد مصرع فخر الدين الا ابنه هذا والامير ملحم ابن اخيه يونس

وفي عهد الامير فخر الدين عظم شان المسيحيين في الديار الشامية فشيدوا المعابد ومارسوا الفروض الدينيــة على تمام حريتهم وركبوا الخيل المسرجة وتعمموا بعمائم بيضاء وحملوا الاسلحة المجوهرة خلافاً لما كانوا عليه في عهد سلفائه . وراجت في البلاد

متاجر الاوروبيين من البنادقة وغيرهم وكثرت فيها رسالاتهم الدينية . وكان على قصر قامته ونحول جسمه شجاعاً باسلا مقداماً ذا نفس ابية لا يلتوي لها عود وسياسياً محنكاً جمع الى الحلم وكرم الخلق الفطنة والدهاء والرصانة وذكاء الفؤاد . وقد بلغ من بسطه الجاه واتساع النفوذ والسلطان ما لم يبلغه وزير او امير في الديار الشامية فهو لذلك في اعتبار المؤرخين اعظم امراء لبنان

﴿ بنو علم الدين وبنو سيفا ﴾ لما قضي على الامير فخر الدين عميد آل معن الاكبر وانحط شأنهم في بلاد الشام خلا الجو لمزاحميهم وحسادهم من امراء البلاد وحكامها وامنوا على سلامتهم وسيادتهم فانتعشوا وطابت نفوسهم . وكان الامير علي علم الدين في مقدمة هؤلاء المزاحمين فوطد سلطته في البلاد وجار على انصار المعنيين ولا سيما على المشايخ الخوازنة حتى اضطر كبراؤهم أن يفروا من وجهه الى توسكانا على نحو ما تقدم . واستمد قاسم باشا سيفا ولاية طرابلس (١٦٣٤) لكنه لم يلبث ان استوى على منصة الحكم حتى صدر له الامر باللحاق بجيش الدولة في العجم فتظاهر بالجنون واعتزل الولاية وتقلد الحكم مكانه ابن اخته الامير علي بن محمد سيفا فنازعه الولاية خاله الثاني الامير عساف وقهره . ثم عاد الامير علي فقاتل خصمه هذا واستولى بمعاونة حسن آغا مدبر خاله الامير قاسم والامير علي علم الدين على بلاد جبيل وجبة المنيطرة . وهب الحمادية لانجاد الامير عساف فاجتاح جبة المنيطرة واضرم النار فيها وفتك بجماعة من بني المستراح . وانحاز المقدم زين الدين الصواف الى جانب الامير علي سيفا فاشتد ساعده وسطا على زاوية طرابلس وهناك ظفر بعدوه وامعن في رجاله قتلاً وجرحاً وضم الى طرابلس ولايتي جبيل والبترون . وأوغل في الجور والبغي فانتزع الباب العالي الولاية منه (١٦٣٥) وعهد بها الى مصطفى باشا النيشانجي فسالمه هذا وتخلى له عن ولايتي جبيل والبترون وألحق بهما الضنية وولى جماعة من ذويه على عكار وحصن الاكراد وصافيتا ارضاء له . وعهد بولاية جبة بشري الى الشيخ ابي كرم يعقوب الحدثي والشيخ ابي جبرائيل يوسف الاهدني . ثم سار مصطفى باشا لمحاربة شاه العجم بعد ان عهد بمحافظة طرابلس الى الامير عساف سيفا . فشق ذلك على الامير علي وسطا على اميون ومعه المقدم محمد ابن علي الصواف فقهرهما الامير عساف في أرض عرقا واستولى على جبيل واستم

نقمته من ابن أخته وحليفه الامير علي علم الدين في وقعة عناز ببلاد الحصن

﴿ نكبة اليمنية ﴾ لم يطل بين الامير علي علم الدين ووزير دمشق عهد الوفاق فتمرّد عميد اليمنية عليه (١٦٣٦) لكنه عجز عن مقاومة جيشه وجيوش الامراء والحكام الذين شدوا ازره كالاميرين عساف سيفا ومراد اللمعي وحاكمي صفد وبيروت . وانهزم بعشر اليمنية الى كسروان فكسره القيسية في مرحاتا والمريج وطاردوه الى النهر البارد واعملوا السيف في رقاب اليمنية على رغم انضمام الامير علي سيفا برجاله اليهم ثم استتموا نقمتهم منهم في جون عكار حيث سبوا نساءهم وغنموا ما كانوا يحملونه من متاع ومال . ورأى ابن علم الدين ان يصلح بين صديقه الامير علي سيفا وخاله الامير عساف فيجتمعان على الاخذ بناصره نخاب مسعاه ولم يحل اتفاقهما دون اجتياح الامير ملحم المعني لبلاد الشوف على اثر نكبة اليمنية هذه وانتزاعه الولاية من ابن علم الدين

﴿ نكبة بني سيفا الثالثة وعود الولاية الى آل علم الدين ﴾ وتلا ذلك جنوح النيشانجي والي طرابلس الى العصيان وفشله على اثر خذل آل سيفا له ونكثهم عهده ومحاولة استرجاع الحرافشة ولاية بعلبك واخفاقهم وايقاع وزير دمشق برجالهم واقتتال الحمادية وأمراء رأس نحاس وعود الاميرين علي وعساف سيفا الى تنازع الحكم والسيادة وانحياز الامير ملحم المعني الى جانب الامير عساف واستظهارهما على الامير علي وصديقه ابن علم الدين (١٦٣٧) . ثم أسندت ولاية طرابلس الى شاهين باشا وهاله ما منيت البلاد به من البلايا على أيدي بني سيفا فاراد ان يريحها من شرهم ويأمن على سلطته من غدرهم فشنق الامير عسافاً وأوقع بكبار عشيرته على ايدي امراء رأس نحاش وبني حماده . ولم ينج منهم الا الامير علي فاستجار بصديقه ابن علم الدين . وكان عميد اليمنية هذا استعاد ولاية الشوف والقى الرعب في قلوب القيسية وانصارهم ولاسيما الخوازنة والحبيشية . غير ان تغلب الامير ملحم المعني عليه اثر انهزامه من وجه السلطان مراد الى بلاد بشاره (١٦٣٨) وانتزاعه الولاية منه هدأ روعهم واسكن ثائر خوفهم فترة قصيرة انقضت باسترجاع عميد اليمنية زمام الحكم وطرده القيسية من الشوف واسترجاعه ولاية بيروت . وفي السنة التالية تولى طرابلس محمد باشا الارناؤوطي فعصاه بنو سيفا والشيخ ابو كرم الحدثي فانتقم منهم شر انتقام

أما السلطان ابراهيم الذي خلف اخاه مراد الرابع (١٦٤٠ — ١٦٤٨) فقد

جنح لدى تبوئه العرش الى مسالمة الدول فخاب فأله وقضى عليه سوء الطالع بان يفني سني ملكه في حروب دموية هائلة ختمت بفتنة أهليـة ذهبت بتاجه واودت بحياته ونودي بابنه السلطان محمد الرابع خلفاً له (١)

﴿ نكبة بني سيفا الرابعة وظلم ولاة طرابلس ﴾ وفي عهد هذا السلطان ظلت الامور في الديار الشامية جارية في مجراها المعتاد . ففي أول سنة من خلافته اجتاح عسكر الارناؤوطي والي طرابلس جبة بشري لالقاء القبض على حاكمها الشيخ ابي كرم وأمعن فيها قتلاً وسلباً حتى اضطر هذا الى افتداء بلاده بنفسه فسلم له وعرض الوالي عليه الاسلام فابى وأماته شر ميتة . ثم دهم الامير سلمان عميد آل سيفا في عكار . ورابه أمر الحمادية فاجتاح بلادهم والحقها بولاية الامير علي علم الدين فلم يخلص له الامير وانتقض عليه لانتزاعه ولايتي بيروت وصيداء منه . وخلفه حسن باشا (١٦٤٤) فاقتفى اثره في البغي والجور حتى اضطر كثيرون الى هجر اوطانهم . ثم استعاد الارناؤوطي الولاية (١٦٤٦) وأوغل في الظلم فازداد البلاء شدة واحكاماً واشتد تيار المهاجرة . فاستبدله السلطان بمحمد باشا الصوفي . وبعد فترة قصيرة أعاده اليها (١٦٤٧) فعاد الى شر مما كان عليه من التضييق على الرعية وسد منافذ الهناء في وجهها

وهكذا كان عهد السلطان ابراهيم حافلاً بالمكاره والارزاء كعهد سلفه . وخلفه ابنه السلطان محمد الرابع (١٦٤٨ - ١٦٨٧) فطال حكمه غير انه كان سيء الطالع نظيره . جلس على سرير السلطنة وهو حديث السن والدولة في حرب مع البنادقة . فافضت السلطة فيها الى زمرة من اصحاب المطامع والاهواء افسدت على الدولة أمورها حتى تناولت انحاءها فوضى عظيمة كانت عوناً للبنادقة على الظفر بها وحشرها في مأزق شديد الخطر عليها لم تجد لها مخرجاً منه الا تدخل مأزقاً أشد منه خطراً على كيانها . فكانت حرب البنادقة مقدمة لحروب أخرى أعظم شاناً واكثر هولاً

---

(١) حارب السلطان ابراهيم القوزاق . ثم شهر الحرب على البنادقة سنة ١٦٤٥ لاسرهم شقيقه وعمته في طريقهما الى الحج (وفي رواية ان شقيقه هذا عاش في اوربا ومات راهباً) وانتزع منهم جزيرة كريت ما عدا عاصمتها كنديا . فشنوا الغارة على بلاد اليونان واضرموا النار في معظم مدنها . فهاج ذلك سخطه وامر باهلاك النصارى في سلطنته فحال مفتي الاستانة دون تنفيذ الامر . وامعن البنادقة في فتوحاتهم وحصر اسطولهم مضيق الدردنيل وتحفزت روسيا للاستيلاء على رومانيا واضرم الانكشارية نار الثورة في الاستانة فحاولوا اغتيال السلطان زعمائهم فاحبطوا مسعاه وخلعوه سنة ١٦٤٨

خاضت الدولة العثمانية غمارها ضد النمسا وفرنسا وكريت وبولونيا وروسيا وقاست فيها من الشدائد والاهوال ما انهك قواها فخرجت منها مقطعة الاوصال ممزقة الاحشاء. ومما زاد الخطب تفاقماً ان الجيش انتقض عليها وعصفت ريح الفتن في انحائها . ولولا مبادرة اقطابها وعلمائها الى خلع السلطان والمناداة باخيه السلطان سليمان الثاني لجل الخطب وذهب باستقلالها (١)

﴿ خاتمة حياة الامير ملحم المعني واخبار بني البشعلاني ﴾ وفي عهد السلطان محمد الرابع نال الديار السورية النصيب الاوفر من البلايا والارزاء التي توالت على السلطنة . ذلك انه لما افضى اليه تاج آل عثمان كانت البلاد رازحة تحت عبء المظالم والنكبات التي انزلها بها نواب الدولة وعمالها ولا سيما محمد باشا الارناؤوطي والي طرابلس إذ كان قد امعن في البغي والاعتساف الى اقصى حد مستطاع . وخلفه عمر باشا (١٦٤٩) فاسترضى آل البشعلاني . وآنس من الامير ملحم المعني جنوحاً الى عصيان بشير باشا وزير دمشق فتوسم في ذلك خيراً وتخلى له من ولاية البترون طمعاً في انحيازه الى جانبه . فكان ذلك باعثاً على اجتماع بشير باشا والامير علي علم الدين على مداهمة ابن معن في وادي التيم غير انه دحر جيشهما وكفى البلاد شرها . ثم اعادا عليه الكرة فاستظهرا عليه بمعاونة صديقيه الاميرين قاسم وحسين الشهابيين وكال

---

(١) استفتح السلطان محمد الرابع ملكه بمحاربة البنادقة فاستظهروا عليه سنة ١٦٤٩ وحطموا اسطوله وحصروا الاستانة فاستحكمت حلقات الضيق فيها . وازدادت الازمة شدة لاستفحال امر الانكشارية فقمع الكوبرلي باشا الصدر الاعظم ثورتهم . ثم انبرى لمنازلة البنادقة فكسر الاسطول البندقي في الدردنيل سنة ١٦٥٦ وانتزع منهم ما كانوا احتلوه من الجزر والثغور العثمانية . وتلا ذلك خروج ترنسلفانيا والفلاخ عن طاعة السلطان سنة ١٦٥٨ . وحربه مع فرنسا والنمسا سنة ١٦٦٣ . واستيلاء فرنسا على تونس والجزائر . وثورة اهل كريت بتحريض هذه الدولة وظفر السلطان بهم بعد حروب طويلة افضت الى تخلي البنادقة له عن هذه الجزيرة سنة ١٦٧٠ . وعقده في السنة التالية مع لويس الرابع عشر معاهدة اعترف بمقتضاها لفرنسا بحق حماية الاماكن المقدسة في السلطنة العثمانية كما كانت الحال في عهد السلطان سليمان الاول . ثم حارب السلطان بولونيا وقهرها سنة ١٦٧٢ وطالت الحرب بينه وبين ملكها سوبيسكي البطل البولوني الشهير الى سنة ١٦٧٦ . ثم عادت الدولة الى محاربة النمسا سنة ١٦٨١ وكسرتها وحاصرت فينا سنة ١٦٨٣ فردها ملك بولونيا عنها ونكل بجيوشها . وابرمت على اثر ذلك بين النمسا وبولونيا وروسيا والبندقية المحالفة المقدسة الشهيرة التي اجتمعت هذه الدول عملاً باحكامها على محاربة الدولة فدوخت بلادها ومزقت جيوشها تمزيقاً سنة ١٦٨٥ حتى افضت الحال الى ثورة داخلية عظيمة قضت بخلع السلطان

لهما ضربة أشد من الاولى وطارد ابن علم الدين الى أبواب دمشق . ولم تطل بعد ذلك أيام الامير ملحم فادركته منيته سنة ١٦٥٨ وهو في صيداء . فكان ذلك النصر الذي أحرزه على أعدائه خاتمة جميلة لحياته المجيدة التي كانت حافلة بالمكارم والمآثر الغراء . ففقد القيسية به اكبر عميد تولى أمرهم بعد عمه فخر الدين . وعدّ النصارى موته خسارة كبيرة عليهم لانه اقتفى اثر عمه في حبه لهم والاخذ بناصرهم . وهذا ما حمل زعماءهم على اخلاص الود له وتأييد ولديه الاميرين أحمد وقرقماس في ما توالى عليهما من الحوادث . وقد امتاز بعدله وحلمه وشدة غيرته على وطنه وعنايته بشؤون البلاد والعباد الى درجة ليس بعدها زيادة لمستزيد

وفي اثناء ذلك تقلد زمام الحكم في طرابلس حسن باشا (١٦٥١) . وفي عهده انحط شأن بني البشملاني وانتزع مزاحموهم منهم ولاية جبة بشري . ثم استعادوا نفوذهم في السنة الثانية اذ استرجع الارناؤوطي باشا ولاية طرابلس وعهد في تدبير شؤونها الى عميدهم أبي رزق كما كان أولا ولقبه بشيخ المشايخ وعزفت له الموسيقى السلطانية . فاستنكر المسلمون ذلك—وهو لا يدين بدينهم . واتهموه زوراً بانه تآمر مع الامير المعني على الوالي . فزجه الارناؤوطي في السجن مع ذويه وانصاره . ثم تولى طرابلس قره حسن باشا فاطلق سبيله واكرهه على التظاهر بالاسلام لئلا يضطر الى قطع رأسه عملا بامر الباب العالي . ثم التزم اموال جبيلة واللاذقية وأقام هناك فانصرفت اذهان حساده عنه ولا سيما بعد ان لاذ أقاربه بحمى ابن معن . وخلف قره حسن محمد باشا الكوبرلي (١٦٥٤) فولى الحمادية على جبة بشري وأقرّ بقية الحكام على اقطاعاتهم . وعقبه علي أغا الطباخ (١٦٥٦) وفي عهده التزم الامير فارس ابن مراد اللمعي اموال الجبة ثم تولى بلاد عكار (١٦٥٨) . ثم خلفه قبلان باشا واراد معاقبة الحمادية لوفرة ما اقترفوه من الموبقات ففروا من وجهه واجتاح وادي علمات ودمر دورهم وقراهم

﴿ نكبة القيسية الكبرى ﴾ أما دمشق فتقلد زمام الحكم فيها بعد بشير باشا محمد باشا الكوبرلي (١٦٦٠) . ولم يكد يطأ أرض الشام حتى تحفز للانتقام من الشهابيين لتنكيلهم بجيش دمشق على عهد سلفه . فزحف بجيش عظيم على وادي التيم ومعه الولاة والحكام وفي جملتهم الامير علي علم الدين . ففر الشهابيون الى قهمز في كسروان . ودك الكوبرلي دورهم في حاصبيا وراشيا وولى على بلادهم الاميرين محمد ومنصور ابني الامير علي علم الدين . وابى الاميران احمد وقرقماس ابني الامير احمد

المعني انجاد الوزير وتأهبا لمقاومته فاضطر ان يقنع منهما بنفقة جيشه . واستقل غنيمته من هذه الغزوة فاستنزف أموال جماعة من الزعماء الذين قاتلوا تحت رايته . وحاول الامير اسمعيل الكردي الافلات من الشرك الذي نصبه له فخفق وأماته الوزير شرّ ميتة . بمثل ذلك كان يكافئ نواب الدولة التركية انصارهم ومحازبيهم على بذلهم ارواحهم وأموالهم في تأييدهم ونصرهم على مزاحميهم واعدائهم . ثم استأنف هذا الطاغية مطاردة الشهابيين وانصارهم المعنيين والحوازنة والحمادية . ورأى هؤلاء ان لا قبل لهم بمقاومته بمن التف حولهم من القيسية فتفرقوا في البلاد وانقطعت اخبار زعمائهم. فجلا الوزير عن البلاد بعد ان قاست من وطأته الشدائد وعهد بولاية الشوف الى الشيخ سرحال العماد ونصب عمالا من اعوانه على بقية الاقطاعات وفرض عليهم خراجاً سنوياً . ثم ظهر الشهابيون والمعنيون في كسروان فعاد الوزير الى مطاردتهم وعاث جيشه فيها ونكب اهلها واضرم النار في دور زعماء القيسيين واتلف املاكهم . ولما اعيته الحيل في القضاء عليهم عمد الى الغدر جرياً على القاعدة المتبعة في الدولة . فاستقدم بحيلة تركية على يد والي صيداء الاميرين احمد وقرقماس المعنيين الى عين مزبود (١٦٦٢) وهو يمنيهما باحسن الامال . وادركا الخطر بعد فوات الفرصة وهمّا بالفرار فاطبق عليهما الجند واصابت ضربة مقتلا من الامير قرقماس فخر صريعاً . أما شقيقه فتمكن من الهرب بعد ان أصيب بجرح بالغ في عنقه وقتل معظم رجاله وتوارى عن الانظار وظل مختفياً زهاء سنتين متواليتين حتى عزل والي صيداء (١٦٦٤) فظهر من مخبأه وانتقم من اليمنية شر انتقام فقاتلهم سنتين متواليتين وأنهك قواهم واستتم نقمته منهم في وقعة بيروت سنة ١٦٦٧ . فانهزم عميدهم ابن علم الدين بجماعة منهم الى دمشق وأسترجع الامير المعني ولاية الشوف وألحق بها بلاد الغرب والمتن وكسروان . واستعاد صديقاه الاميران منصور وعلي الشهابيان ولايتهما على وادي التيم . وتلا ذلك تنازع الحرافشة على ولاية بعلبك (١٦٧١) الى ان افضت الى أحدهم الامير علي . ومحاولة الشهابيين الانتقام من بني حيمور أصحاب البقاع لاشتراكهم في الحرب التي أصلى الكوبرلي نارها عليهم في وادي التيم

﴿ استفحال امر الحمادية ونكبتهم الكبرى ﴾ وفي السنة التالية تولى طرابلس حسن باشا فاعاد الحمادية الى اقطاعاتهم فجاروا وبغوا . فانتزع الحكم منهم وقاتلهم عند افقا (١٦٧٥) . فاجتاحوا بلاد جبيل والبترون واستفحل امرهم. فاجتمع ولاة سورية

على مقاتلتهم . وحال توسط الامير احمد المعني دون مطاردة الولاة لهم . واطلق والي طرابلس رهائنهم بعد ان دفع اليه الامير ما كان متأخراً عليهم من الاموال . ثم انتهز الحمادية فرصة انصراف هذا الوالي الى قتال التركمان واضرموا نار الفتن في بلاد جبيل والبترون (١٦٧٦) . فاستأنف الكرة عليهم واضرم النار في قرى علمات . فثأروا لانفسهم بتدميرهم قرى كثيرة في بلاد جبيل . فاضطر خلفه الى استرضائهم واعاد اليهم اقطاعاتهم فاخلدوا الى السكون

وتلا ذلك تنازع الامير فارس شهاب والامير عمر الحرفوش ولاية بعلبك . واوقع ابن الحرفوش بخصمه في نيحا . فارغمه الامير احمد المعني صديق الشهابيين على دفع ديته وتركه وشأنه . فاستأثر بالحكم ولم يهنأ به طويلاً فطرد الى جبيل حيث ادركته منيته (١٦٨٣) . وخيل الى الشهابيين انه لم يعد في استطاعة الحرافشة انتزاع ولاية بعلبك منهم لخاب فألهم وافضت بعد فترة قصيرة الى الامير شديد ابن اخي الامير عمر الحرفوش

أما الحمادية فلم يطب لهم العيش في السكون الذي لزموه على اثر رد والي طرابلس اقطاعاتهم اليهم . فاتخذوا عزله في السنة التالية وسيلة لاخراج رهائنهم من قلعتها عنوة (١٦٨٤) . وعرجوا في عودهم الى جبة المنيطرة على عشقوت وحاولوا نهبها . فقاومهم اهلها وقتل منهم احد عشر نفساً (١) . فانتقم منهم والي طرابلس الجديد على يد الامير احمد المعني اذ اجتاح جيش الامير جبة المنيطرة ومعه رجال الخوازنة والحبيشية ودك دورهم وقراهم هناك بعد ان اضرم النار فيها . فلاذوا بالفرار الى بعلبك وعرض الوالي على ابن معن الحاق بلادهم بولايته فابى . ثم عادوا فجمعوا شملهم وجاهروا بالعصيان فقمع وكيل الوالي ثورتهم وامات اثني عشر عبداً من انصارهم على الخازوق (١٦٨٦) . ولم يكن ذلك كافياً لكبح جماحهم فنصروا الامير شديد الحرفوش على الوالي في قتال نشب بينهما . فانتقم الوالي منهم واضرم النار في اربعين قرية من قراهم

(١) كان بين الحمادية وآل ثابت في عشقوت ضغائن يرجع عهدها الى سنة ١٦٥٠ اذ قتلك خاطر (حفيد المقدم خاطر الحصروني حاكم جبة بشري) ابو ثابت رجلاً من بني المستراح انسباء الحمادية على اثر اختصامه مع اخيه شمعون الذي قتل في هذا الخصام وفر خاطر هذا الى عشقوت واستوطنها . ولهذا كان بنو ثابت اول من هب لمقاومة الحمادية عند محاولتهم نهب وطنهم الجديد . ولم يلبث الحمادية ان امنوا بطش الامير المعني حتى اعتدوا الكرة على عشقوت انتقاماً من اهلها لما نالهم بسببهم من المضار لدن اجتياح هذا الامير بلادهم .

وفي جملتها العاقوره . فدهموه على عين الباطية في صرود تنورين وبددوا عسكره واقتفوا أثره الى جبيل واحرقوا قلعتها

وعقب حوادث الحمادية نكبة آل البشعلاني . ذلك ان حساد آل البشعلاني ومزاحميهم هالهم ما رأوا من تعاظم شأن عميدهم الشيخ يونس فوشوا به الى ارسلان باشا المطرجي والي طرابلس فزجه في السجن مع ذويه وانصاره . فتظاهر بالاسلام ليأمن غدره وانس منه غفلة ففرّ باهله الى بلاد معن

***

لما تبوأ السلطان سليمان الثاني عرش أجداده (١٦٨٧ — ١٦٩١) رأى ان يأخذ الانكشارية باللين فتمردوا عليه وسادت الفوضى عاصمة السلطنة . فتحين اعداء الدولة هذه الفرصة لاجتياح املاكها فاحتل البنادقة ثغور اليونان وساحل دلماسيا (١٦٨٧) واستولى النمساويون على قسم من صربيا (١٦٨٨ — ١٦٨٩) ثم استردها منهم مصطفى باشا الكوبرلي الصدر الاعظم (١٦٩٠) بعد ان أصلح شؤون الدولة وبث في الجيش روح النظام . واستمال النصارى الى الدولة واخصهم اهل المورة

وخلف هذا السلطان اخوه احمد الثاني (١٦٩١ — ١٦٩٥) ولم يكد يستقر على العرش حتى عاجلت المنية الصدر الاعظم وهو قائم على محاربة النمسا . فكانت وفاته نكبة على الدولة حيث اضاعت ما كان تمّ لها على يده من السطوة والنفوذ . واستولى البنادقة على جزيرة صاقص (١٦٩٤) ومات هذا السلطان سنة ١٦٩٥ وخلفه السلطان مصطفى الثاني

اما سورية فلم تكن في عهد هذين السلطانين اسعد حظاً منها في عهد من تقدمهما من السلاطين . فظلت الفتن والنكبات تتوالى وتتعاقب في انحائها على نحو ما كانت عليه سابقاً . ذلك ان استظهار الحمادية على والي طرابلس الاخير شدد عزائمهم . ومما زادهم قحة مجاراة الوالي الذي خلفه لهم واقرارهم على اقطاعاتهم (١٦٩١) وجاء موت الشيخ ابي قانصوه فياض الخازن واخيه الشيخ ابي نادر في سنة واحدة موطداً لسلطتهم وممززاً لسطوتهم . فعادوا الى سابق عهدهم من ارهاق الناس بالمظالم واوغلوا في النهب والسلب . وتلا ذلك انتقال ولاية طرابلس الى علي باشا الملقب (١٦٩٢) فاقرهم على اقطاعاتهم . ثم انتزع الحكم منهم وعهد به الى عمال من بني دندش والحسامي والشاعر ونحاوس . واستعان بالامير احمد المعني عليهم فكسر

الامير شوكتهم على ايدي الخوازنة وطاردهم هؤلاء الى بعلبك ففتك حاكمها بجماعة منهم واجهز العمال الذين تولوا اقطاعاتهم على جماعة آخرين منهم بين قهوز ولاسا. وحسن ما فعله اللقيس بهم في عيني السلطان فرقاه الى منصب الصدارة

﴿ خاتمة حكم المعنيين وانقراض سلالتهم ﴾ ثم تولى طرابلس ارسلان باشا المطرجي (١٦٩٣) فعرض اقطاعات الحمادية على الامير احمد المعني ليأمن شرهم فابى. وولى المطرجي عليها امراء الاكراد وبني الشاعر وعهد اليهم بالقضاء على سطوتهم ففشلوا وكسرهم الحمادية شر كسرة في عين قبعل بالفتوح. فحنق الوالي على الامير المعني واتهمه بمالئة الحمادية عليه واستصدر امراً من السلطان بعزله من ولايته وتقليد عدوه الامير موسى علم الدين زمامها. وحشد جيشاً عظيماً في وطا عرموش بالبقاع لمقاتلته. وعلم الامير المعني ان بين الذين انضموا الى جيش الدولة جماعة من انصاره القيسية كالخوازنة بقيادة عميدهم الشيخ حصن والنكدية والعيدية وبعض اليزبكية. فوجد ان مقاومته لهذا الجيش الضخم — وقد تخلى عنه معظم حلفائه — ضرب من الحماقة والجهل. فآثر الاعتزال في وادي التيم ريثما يستجمع شتات قواته. ثم زحف على الشوف ومعه الاميران نجم وبشير الشهابيان فاستجار ابن علم الدين بمصطفى باشا والي صيداء فخذله لان الامير المعني حذره من غدره وتمكن ابن معن بالمال وحسن السياسة من اكتساب ثقته وحمله على استصدار ارادة سلطانية باقراره على ولايته

جلس السلطان مصطفى الثاني على العرش (١٦٩٥ — ١٧٠٣) وأعداء الدولة يتحفزون للاجهاز عليها. وكان شجاعاً مشغفاً بالفتح. فحارب بولونيا وقاد الجيش بنفسه فقهرها. وحارب بطرس الاكبر قيصر الروس. وأطال بما ابتكره من أساليب الدفاع وقوف الجيش الروسي أمام أزوف سنة كاملة قبل ان يفتحها القيصر (١٦٩٦). وتحرشت به النمسا فقهرها أولاً. ثم كسرته في حرب البشناق (١٦٩٧) فاستجمع قواته وأجلاها عنها. واسترد جزيرة صاقس من البنادقة. غيران معاهدة الصلح التي أبرمها مع أعدائه على يد لويس الرابع عشر (١٦٩٩) أخرجت معظم الولايات البلقانية من يده. ثم انصرف الى تنظيم شؤون الدولة فتعرض له الانكشارية وقاموا بفتنة عظيمة أفضت الى خلعه والمناداة باخيه السلطان احمد الثالث

أما سوريا فكان عهد هـذا السلطان شؤماً عليها اذ حلّ بها القحط والغلاء في

السنة الثانية لملكه (١٦٩٦) . وجاءت مضاعفة أموال التكاليف ضغثاً على إبالة فاضطر عدد كبير من أهلها الى هجر أوطانهم . وتلا ذلك فتك المطرجي والي طرابلس بالشيخ يونس البشعلاني الشهير (١) وانقراض سلالة بني معن وافضاء الولاية الى الشهابيين

﴿ ولاية الامراء الشهابيين ﴾ انقضت سنة ١٦٩٧ وبها انقضى حكم الامراء المعنيين على أثر موت الامير احمد المعني . فكانت مدة ولايتهم ٥٧٩ سنة (١١١٨ — ١٦٩٧) . فاختار أعيان البلاد خلفاً له ابن اخته الامير بشير حسين الشهابي أمير راشيا (٢) . غير ان الامير حسين بن فخر الدين المعني كان لا يزال في الاستانة فتمكن من حمل السلطان على تولية الامير حيدر بن الامير موسى شهاب لانه حفيد الامير احمد المعني لبنته . وكان الامير حيدر لا يزال قاصراً فتقلد الامير بشير زمام الولاية ريثما يبلغ الامير القاصر سن الرشد . وبذلك تم انتقال ولاية آل معن الى الشهابيين (١٦٩٧ — ١٨٤٢)

﴿ ولاية الامير بشير الاول الشهابي ﴾ استوى الامير بشير حسين الشهابي على منصة الامارة والفوضى ضاربة أطنابها في الديار الشامية . فاعد للنضال عدته . ولم يكد يستتب له الامر حتى عصفت ريح الثورة في بلاد بشارة فقمعها وكال للشيخ مشرف العيني مضرم نارها ضربة شديدة قاضية . فتخلى له قبلان باشا والي صيداء عن هذه البلاد مكافأة له . فولى عليها الامير منصور بن أخيه واناب عنه في تدبير شؤونها عمر بن أبي زيدان أبا ضاهر العمر الشهير لانه كان قيسياً من أنصاره . وعلى أثر ذلك

---

(١) قال ده لاروك في تاريخ رحلته الى لبنان ما يؤخذ منه ان الشيخ يونس كان عظيم النفوذ واسع الثروة ذكي الفؤاد حكيماً . وكان له عند وزراء الدولة وأقطابها من سمو المكانة ما أوغر صدور حساده حقداً عليه . فسجنه ارسلان باشا المطرجي مع ذويه عملا باشارتهم . ثم تظاهر بالاسلام لينجو من شرهم . فافتى مفتي الاستانة ان اسلامه باطل لانه اكره عليه اكراهاً . فجاهر بنصرانيته وتولى برية طرابلس خمس سنوات الى أن تولى طرابلس قبلان باشا المطرجي (١٦٩٥) فحمله حساد الشيخ يونس على زجه في السجن سنتين متواليتين حاول فيهما مراراً ان يستميله الى الاسلام فاخفق واماته على الخازوق (١٦٩٧) . ومن ذلك الحين انحط شأن آل البشعلاني ولم يحل عطف ملك فرنسا وتناصله عليهم دون ما حل بهم على أثر هذه النكبة من البؤس والشقاء

(٢) ان انتقال ولاية آل معن الى الشهابيين انما كان باختيار أهل البلاد أنفسهم عملا بعادات اللبنانيين وتقاليدهم الموروثة من أزمنة عريقة في القدم . وفي ذلك ما يكفي للدلالة على ان استقلال لبنان التام في شؤونه الداخلية يرتقي الى اقدم أزمنة التاريخ

جاهر الحمادية بالعصيان واسترسلوا في البغي والفجور . فردّ والي طرابلس كيدهم الى نحرهم وألحق اقطاعاتهم بولاية الامير الشهابي لينجو من شرّهم . وبذلك امتدت ولايته من صفد الى حدود طرابلس . وهاج فوز ابن شهاب كوامن الحسد والحقد في صدر عدوّه الامير موسى علم الدين فتذرع بما كان بين خصمه هذا وبين والي طرابلس وصيداء الاخوين من الولاء المتبادل للوشاية بهم الى السلطان بانهم تآمروا على خلع طاعته . وأمّ الاستانة في هـذه المهمة نخاب مسعاه (١٧٠٠) . وتعاظم نفوذ الامير الشهابي وانبسط رواق مجـده وسلطانه . ولولا اشتداد وطأة الاوبئة وحلول الضنك والشقاء في تلك السنة لجاءت فاتحة ولاية الشهابيين خاتمة حسنة جميلة لتاريخ القرن السابع عشر في الديار الشامية

سورية في القرن الثامن عشر

بزغت شمس القرن الثامن عشر وزوابع الحروب تهب على السلطنة العثمانية . فجلس السلطان احمد الثالث على العرش (١٧٠٣ — ١٧٣٠) وهو مزعزع الاركان . وقد طالت خلافته ولكنها كانت حافلة بالكوارث والنكبات . استهل ملكه بالضرب على أيدي الانكشارية . ثم حارب الروس وملكهم يومئذ بطرس الاكبر . وتلا ذلك حربه مع بولونيا وقهره لها وانحياز النمسا الى جانبها واستظهارها على الترك . وحارب الفرس وقهرهم ثم مال الى مسالمتهم . فشق ذلك على الانكشارية وخلعوه ونادوا باخيـه السلطان محمود [1]

﴿ ولاية الامير حيدر الشهابي ﴾ أما في سورية فكان عهد هذا السلطان حافلاً

---

(١) كان بطرس الاكبر أشد قياصرة الروس رغبة في تجزئة تركيا كما يستجلي من وصيته الشهيرة . وقد حاربه السلطان احمد الثالث وتمكن بعد حروب هائلة من حصره ومعشوقته كاترينا في مدينة أزوف (١٧١٠) وأرغمه على الصلح (١٧١١) . ثم استؤنفت الحرب بينهما وعقبتها معاهدة ادرنة (١٧١٣) فجاءت في مصلحة تركيا . ثم قضت عليهما المصلحة المشتركة بابرام حلفة مجحفة بحقوق بولونيا والنمسا جاءت على اثر انتصار الثانية للاولى في حربها مع الترك وقهرها لهم (١٧١٦ — ١٧١٧) . فصان بذلك عرشه ومملكته . ثم اتفق مع القيصر على انقسام جانب من مملكة الفرس فكان هذا الاتفاق قاضياً على عرشه اذ حاربه الفرس وغلبوا على أمرهم (١٧٢٥) . ثم اجتاحوا املاك الدولة فاحجم السلطان عن محاربتهم . وهاج احجامه غضب الانكشارية فخلعوه . ومن حسناته أنه أنشأ في الاستانة داراً للطباعة . وكان ذلك أول عهد الدولة بهذا الفن

بالفتن والحروب كعهد سلفه . انقضى في مفتتح ملكه حكم الامير بشير الشهابي (١٧٠٧) واستوى على منصة الامارة الامير حيدر شهاب . فاستهل حكمه بفتح بلاد بشارة وكسر شوكة مشايخها بني علي الصغير وآل منكر وصعب . وولى عليها الشيخ محمود أبا هرموش (١٧٠٨) فلم يحفظ هذا الشيخ ذمامه وانحاز الى عدوه الامير يوسف علم الدين وحارباه فاستظهرا عليه بمعاونة آل ارسلان وبشير باشا والي صيداء وطارداه الى غزير . وهناك دارت رحى الحرب واحرز ابن شهاب وأنصاره القيسية نصراً مبيناً . الا انه أحجم عن تعقب اليمنية لتكاثر عددهم وآثر الاعتصام في مغارة عذرائيل بالهرمل . واتهم الحبيشيون بني الخازن بمالأة الامير حيدر . وصادف تنصل هؤلاء من هذه التهمة هوى من نفس الامير يوسف علم الدين فنكب بني حبيش وأضرم النار في غزير انتقاماً منهم

﴿ نكبة اليمنية الكبرى وانقضاء ولاية آل علم الدين ﴾ عاد الامير اليمني الى بلاد الشوف وعهد في تدبير شؤونها الى ابي هرموش . فجار وبغى واشتدت وطأته على القيسية . فقلق الامير حيدر على مصير قومه وهب من مخبأه لانقاذهم من شره وطغيانه . وتمكن بمعاونة من شد ازره من امراء القيسية ومشايخهم كاللمعيين والعمادية والخوازنة من حشد جيش كبير والتنكيل باليمنية في يوم عين دارا الشهير وانتزاع الولاية منهم . وقتل في هذه الحرب ثلاثة من آل علم الدين . ووقع ثلاثة آخرون في الاسر وهم الامراء يوسف ومنصور واحمد . فقطع الامير الشهابي رؤوسهم . وبذلك انقرضت سلالتهم وانقضى حكمهم . وكافأ من خاض في جانبه غمار هذه الحرب من اللمعيين وآل عماد والقاضي ونكد وتلحوق وعبد الملك وجنبلاط فاقطعهم الاقطاعات . ووقع حسن بلاء اللمعيين فيها ولاسيما الامير عبد الله من نفسه وقعاً جميلا . فبالغ في اكرامهم وصاهرهم وأقرهم على القابهم . وصرف آخر سني حكمه بالغبطة والهناء . ووافته منيته سنة ١٧٣٢ وله تسعة اولاد [1] . وكان عادلاً حليماً كريماً . وفي عهده ارتفع شأن القيسية وذل الحزب اليمني . وقد ارضى البلاد وأحرز ثقة الدولة

تبوأ السلطان محمود الاول عرش بني عثمان (١٧٣٠ — ١٧٥٤) والسلطة في العاصمة لزعيم الثوار . ففتك به وانصرف الى حرب الفرس فقهرهم (١٧٣٢—١٧٣٦) .

---

(١) رزق الامير حيدر اولاده من اربع زوجات : الامراء ملحم واحمد ومنصور ويونس وعلي ومعن وحسين من بنتي عمه الشقيقتين . وعمر من والدة الامير مراد اللمعي . ونشير من بنت الامير حسين اللمعي عميد اللمعيين

وتحرشت به روسيا والنمسا فحاربهما وصالحهما على شروط في مصلحته (١٧٣٩) ولكي يأمن جانبهما حالف فرنسا واسوج . ومات حتف أنفه . وخلفه السلطان عثمان الثالث . وقد احرز السلطان محمود بحلمه وعدله وحبه للمساواة بين رعاياه مكانة رفيعة قلّ من احرزها بين سلاطين آل عثمان . وفي عهده اتسع نطاق السلطنة وعظم شأنها

على ان عدل السلطان محمود لم يتمدّ دائرة عاصمته . فكان صداه في الولايات ولا سيما في سورية ضعيفاً خافتاً لم يقوَ على شق حجب الضمائر المتصلبة . وظل عمال الدولة يسومون الناس خسفاً وظلماً ويبذرون بذور الفتن بين احزابها المتنافرة . وقد افضى الحكم في ولاياتها الثلاثة دمشق وصيداء وطرابلس الى ولاة وطنيين من آل العظم (١٧٣٤) وعظمت شوكتهم وانبسط رواق سلطانهم . أما امارة لبنان فكانت قد آلت بموافقة سعد الدين باشا العظم والي صيداء(١٧٣٢) الى الامير ملحم بن الامير حيدر شهاب . فافتتح حكمه بقمع ثورة بني علي الصغير اصحاب بلاد بشارة . فهابه الناس وتعاظمت سطوته . غير ان ولاءه لسعد الدين كان قذى في عيني اخيه اسعد باشا والي دمشق . فاضمر له الشر ولكنه عجز عن كسر شوكته . وتعقبه الامير الى ابواب دمشق (١٧٤١) . وازداد بن العظم حنقاً على الامير ولا سيما بعد تنكيله ببني منكر وبني صعب اصحاب جبل عامل (١٧٤٣) تأييداً لسلطة صديقه سعد الدين باشا . وانتهز فرصة الحاق بعلبك بولاية الامير الشهابي (١٧٤٧) لاغراء الامير حيدر الحرفوش صاحب هذا الاقطاع بمحاربته . فقضى ابن شهاب على امنيته بكسره لها في قب الياس شر كسرة وعهد الى اخيه الامير حسين في ولاية بعلبك . وابت الاقدار الا معاندة اسعد باشا العظم فضرب السلطان عنقه قبل أن يتاح له ان ينتقم من الامير ملحم . وخلفه في ولاية دمشق ابن عمه سليمان باشا العظم والي طرابلس. ثم خلت ولاية صيداء بموت سعد الدين باشا فخلفه عثمان باشا المحصّل واراد اذلال الامير الشهابي ففشل . أما سليمان باشا فسالم الامير ملحم وتودد اليه . فشد ازره في استئصال الانكشارية والقضاء على من نصرهم من بني تلحوق وعبد الملك (١٧٤٨) . على ان ولاء الامير لابن العظم لم يحل دون رجوع هذا الى القاعدة التي ألفها ولاة سورية في معاملة امراء لبنان ولا سيما بعد ان الحقت بيروت بولاية ابن شهاب ووفق الى قمع ثورة بني منكر وتعاظم شأنه . فكان ذلك باعثاً على تحرش سليمان باشا به والتحفز لمحاربته (١٧٥٠) .

وتلا ذلك خروج النكدية عن طاعة الامير فكسر شوكتهم (١٧٥١) . غير انه لم يكد يطمئن على امارته حتى ألمّ بصحته انحراف شغله عن شؤون البلاد (١٧٥٤) . فاكرهه اعيانها على التخلي عن الولاية الى اخويه الاميرين احمد ومنصور . وصرف آخر سني حياته في بيروت حيث انقطع الى دروس الفقه . وادركته منيته سنة ١٧٦١ وله ستة اولاد [1] . وكان حازماً مقداماً . ويذكر المؤرخون له من المآثر الجليلة ما رفعه الى مصاف اكبر امراء لبنان

اما السلطان عثمان الثالث (١٧٥٤ — ١٧٥٧) فلم يقع في عهده ما هو خليق بالاعتبار سوى ما اشتهر به من الخروج متنكراً لتفقد احوال رعيته بنفسه وهو ما يعدّ من مفاخر الخلفاء الاولين

وخلفه السلطان مصطفى الثالث (١٧٥٧—١٧٧٤) . فامتاز بميله الى الاصلاح . وتمّ له بعض ما كان يمني النفس به منه على يد وزيره الحازم راغب باشا المصلح الشهير . غير ان موت هذا الوزير وحرب الدولة مع الروس حالا دون بلوغه الحد الاقصى من امانيه . وقضت ثورة اليونان وخروج علي بك المصري عن طاعته على البقية الباقية من آماله . ومات والحرب على اشدّها بين الدولة وروسيا وخلفه عبد الحميد الاول [2]

﴿ تنازع الشهابيين الولاية ﴾ اول ما يسترعي الابصار من الحوادث التي افتتح بها عهد هذين السلطانين في الديار الشامية فتنة نشبت في دمشق وكان لدروز لبنان شأن فيها اذ نصروا الانكشارية على القاقول وقاسى الوالي الشدائد في اعادة الامن الى نصابه (١٧٥٥ — ١٧٥٧) . وتخلل هذه الثورة انتقاض الامير قاسم عمر على

---

(١) كان للامير ملحم ستة اولاد . محمد ويوسف وقاسم وسيد احمد وافندي وحيدر . وكان الشيخ سعد الخوري صالح مدبراً لولايته . وعند دنو اجله أقامه وصياً عليهم فكان ذلك باعثاً على تعزيز مركز الشيخ سعد وارتفاع شأن بيته من بعده

(٢) كان راغب باشا أول من فكر في انشاء خليج عظيم بين البوسفور ودجلة . فحال موته دون انشائه ومهد السبيل لتحرش كاترينا الثانية قيصرة روسيا الشهيرة بالدولة وشهرها الحرب عليها واستيلاء الروس على ولاياتها البلقانية واغراق أسطولهم للاسطول العثماني بعد ان اضرم النار فيه خدعة (١٧٧٠) . وتلا ذلك احتلال الروس لبلاد القرم وانتصار الجيش العثماني على نهر الدانوب (١٧٧٢) وخروج الامير علي المصري عن الدولة باغراء الروس واكتساحه جنوب سورية بمعاونة ظاهر العمر والي عكاء الشهير وغير ذلك من النكبات التي نغصت عيش السلطان مصطفى الى النفس الاخير من حياته

عميه الاميرين احمد ومنصور الواليين الشهابيين وتآمره مع اخيهما الامير ملحم الوالي السابق على خلعهما واقتسام ولايتهما . وابحر الامير قاسم الى الاستانة في هذه المهمة (١٧٥٨) . ففشل اولاً واضطر الى مصالحة عميه . ثم ظفر بالولاية واستولى على بيروت فجأة . فعرض له اعيان البلاد واعادوا الولاية الى صاحبيها فارضياه باقطاع عين دارا وازوجه احدهما الامير منصور بنته (١٧٦٢) . فاخلد الى السكون . وتوفي في غزير سنة ١٦٦٧ وولداه الاميران حسن وبشير « الكبير » في سن الطفولة

﴿ اليزبكية والجنبلاطية وولاية الامير يوسف ﴾ كان خروج الامير قاسم من ساحة النضال فاتحة عهد النزاع بين الواليين الاخوين وانقسام اللبنانيين الى حزبين كبيرين : حزب اليزبكية وعميده الامير احمد . وحزب الجنبلاطية وعميده الامير منصور . ثم اتفق الحزبان على شد ازر الامير منصور ولا سيما بعد ان رجحت كفته على أثر تحيز محمد باشا العظم والي صيداء له . واضطر الامير احمد أن يتخلى لاخيه عن حقه في الولاية . فتركه وشأنه ولكنه انتقم من صديقه الامير يوسف ابن الامير ملحم أخيه ومن محازبيه النكدية . فافضى ذلك الى تآمر الشيخ سعد الخوري والشيخ علي جنبلاط زعيم اليزبكية والشيخ كليب النكدي على خلع الامير منصور وتولية الامير يوسف مكانه . وأيدهم والي دمشق وابنه والي طرابلس وقلداه ولاية جبيل (١٧٦٣) . وأحسن الامير يوسف سياسة البلاد وانجد والي دمشق في حصار قلعة سانور (١٧٦٤) فابلى بلاء حسناً . ونازعه الحمادية اصحاب جبيل والبترون ولاية اقطاعاتهم فاستظهر عليهم في أميون على رغم مساعدة والي طرابلس لهم (١٧٦٦) . فتعاظم أمره وكثر انصاره . أما الامير منصور فحاول ايقاع الشقاق بين زعماء اليزبكية اضعافاً لشأنهم فخاب مسعاه وكادت ولاية الشوف تفضي الى الامير يوسف لولا أنه لم يبادر الى استرضائهم .

﴿ الامير علي المصري والشيخ ضاهر العمر ﴾ وفي خلال ذلك وقعت بين الشيخ ضاهر العمر والي عكاء وبين عثمان باشا الصادق والي دمشق نفرة افضت الى القتال . وانحاز الامير منصور شهاب الى جانب عثمان باشا فقوي ساعده . وكان ابن العمر يدرك مقاصد الامير علي المصري ومطامعه فاستماله اليه . ومده هذا بعشرة آلاف مقاتل بقيادة اسماعيل بك . فتقهقر عثمان باشا بجيشه الى المزيريب . غير أن القائد المصري أحجم عن مقاتلته حرمة للدولة . وكان علي بك المصري خبر كفاءة محمد بك ابي الذهب عند اكتساحه الحجاز بتحريض روسيا وطرده الشريف منها . فعهد اليه

في قيادة حملة جديدة سيرها على سورية . فحقق ظنه به واوقع بجيوش عثمان باشا ودخل دمشق ظافراً (١٧٧٠) فانهزم الوالي الى حمص وتخلف الامير منصور عنه بتحريض ضاهر العمر . على أن اشفاق اسماعيل بك من تبعة الخروج على الدولة أدى بابي الذهب الى الجلاء بجيشه فجأة عن دمشق . فعاد عثمان باشا اليها وفي أثره الامير يوسف شهاب الذي كان انحاز الى جانبه . فخلع عليه وسار الامير الى الشوف . فالتف الاعيان حوله واكرهوا الامير منصور على التخلي له عن الولاية . فدانت البلاد لسلطان الامير يوسف من طرابلس الى حدود صيداء . واستوطن خصمه هذا بيروت الى سنة ١٧٧٤ حيث وافته منيته وله اربعة اولاد : موسى ومراد وحمود وحيدر

﴿ مصير الامير علي المصري ﴾ أما ابو الذهب فحاول ان يلقي تبعة جلائه عن سورية على ضاهر العمر ففشل . وأراد الامير علي معاقبته على خيانته . فحاربه وظفر بمعاونة اسمعيل بك بمرير مصر . ففر الامير علي الى عكاء بعشرة آلاف من فرسان الغز . وفي أثناء ذلك انتهز عثمان باشا فرصة جلاء الجيش المصري عن سورية للانتقام من ضاهر العمر وزحف على عكاء بجيش عظيم ومعه ابنه درويش باشا والي صيداء والامير يوسف شهاب . فكسرهم ابن العمر على بحيرة الحولة كسرة عظيمة . ثم تولى دمشق عثمان باشا المصري فاقتفى أثر سلفه في مناجزة الشيخ ضاهر ومعاداته . وحاول بمعاونة الامير يوسف انتزاع ولاية صيداء منه فعجز دونها . وحال الاسطول الروسي دون سقوطها في يده واحتل رجال الاسطول مدينة بيروت ثم جلوا عنها بعد ان انزلوا الويلات باهلها وبمن كان ينزلها من الشهابيين (١٧٧١) . واستفز انتصار ابن العمر علي بك المصري للثأر من أبي الذهب وزحف بجيشه لاسترجاع أمارة مصر منه . فالتقاه هذا عند غزة وكسره وأسره وهو مصاب بجرح بالغ فعالجه الى ان اوشك جرحه ان يبرأ فدس له السم فيه ومات (١٧٧٢)

﴿ ظهور الجزار ﴾ وفي خلال ذلك ظهر احمد الجزار في مصر وهو بشناقي الاصل . جاءها في ولاية الامير علي المصري وارتكب من الموبقات ما حمل الحكومة على تعقبه . ففر الى لبنان (١٧٧٠) وأقام في بيروت بامر الامير يوسف شهاب . واشترك في حصار صيداء فابلى فيه بلاء حسناً . وعهد اليه الامير في حماية بيروت من اغارات الروس بثلثمئة مقاتل من المغاربة . فانصرف الى تحصينها وحدثته نفسه بالاستقلال في ولايتها فجاهر بالعصيان على حين غفلة . فحصره الامير فيها وشدّ الاسطول

الروسي أزره حتى سدّا عليه منافذ النجاة وأكرهاه على الجلاء عنها بشفاعة ضاهر العمر بعد ان ثبت على الحصار أربعة أشهر . واستعاد الامير يوسف ولايته عليها

﴿ مصير أبي الذهب ونكبة آل العمر ﴾ أما ضاهر العمر فعفا الباب العالي عنه وولاه على صيداء وعكاء وحيفا ويافا والرملة ونابلس وصفد (١٧٧٢) . فانقاد اليه أهل البلاد وتعاظمت سطوته . فهاج ذلك كوامن الحقد والحسد في صدر أبي الذهب أمير مصر . فاكتسح فلسطين بعد استئذان الباب العالي (١٧٧٤) . وفتح يافا عنوة وحاكمها يومئذ الشيخ كريم ابن ضاهر العمر . فاضطر هذا بازاء خذل الامير يوسف له ان يلوذ بالفرار . ونكب الفاتح المصري أهل البلاد وقتل رهبان دير ايليا النبي ودكّه من أساسه . غير انه لم يهنأ بفتحه هذا فادركته منيته فجأة وهو يصرخ : « ردوا عني هذا الشيخ المفترس » . ويريد به ايليا النبي . وخيّل الى ضاهر العمر انه أمن بموت هذا الطاغية على حياته وسلطته . فخاب فأله اذ اتفق قائد الاسطول العثماني ومحمد باشا العظم والي القدس على محاصرته في عكاء . فجزع على مصيره وعمد الى الفرار ولا سيما بعد تخلي أعوانه عنه وخذل احمد الدنكزلي والي صيداء له فابتدره أحد المغاربة وهو خارج من المدينة برصاصة أودت بحياته . وسلمت عكاء لقائد الاسطول فقتل بابنه سعيد وأنعم السلطان على ابنيه عثمان واحمد بمنصبين في الدولة تعويضاً عن قتل أبيهما واخيهما . ونهب أمير البحر ما كان في خزائن آل العمر من التحف النادرة والاموال الوفيرة بعد قتل ابراهيم الصباغ قيّم بيتهم

﴿ تعاظم شأن الامير يوسف ﴾ وفي أثناء ذلك كان الامير يوسف منصرفاً الى توطيد سلطته في لبنان فنكب الحمادية وطردهم من اقطاعاتهم (١٧٧١) . ثم انتقم من أنصارهم بني رعد أصحاب الضنية . وأراد عثمان باشا والي دمشق انتزاع البقاع من أخيه الامير سيد احمد فانبرى له الامير يوسف وكسره بمعاونة ضاهر العمر (١٧٧٣) ووطد مركز اخيه . فكان جزاؤه منه أنه خرج عليه يريد الاستقلال بالولاية من دونه . واعتصم في قلعة قب الياس . وذكر عثمان باشا ما ناله من مذلة الانكسار بسببه فنصر الامير يوسف عليه وأكرهاه هو وصديقه الامير منصور شهاب صاحب راشيا على التماس العفو صاغرين

أما السلطان عبدالحميد الاول (١٧٧٤ — ١٧٨٩) فجلس على العرش والقيصرة كاترينا العظيمة تحفز لاسترجاع ما اغتصبه سلفه من املاك روسيا . فحاربها وغلب

على امره واضطر أن يعترف لها بامتلاك بلاد القرم. ثم استؤنفت الحرب بينهما (١٧٨٨) وانحازت النمسا الى جانب روسيا ومات السلطان قبل أن تضع الحرب اوزارها [١]

﴿ ولاية الجزار ﴾ انما أناب السلطان عبد الحميد الاول من البلايا والارزاء نال الديار الشامية منه أوفر نصيب . تقلد في مفتتح خلافته زمام ولاية صيداء أحمد باشا الجزار السفاح الشهير (١٧٧٦—١٨٠٤) وأمير لبنان يومئذ الامير يوسف شهاب ولم يكن قد انقضى الحول السادس على عصيانه له . فسعى الامير لعزله وتمكن بالمال من حمل حسن باشا المفوّض العثماني في سورية على رفع سلطانه عنه واقراره في ولاية لبنان بالرغم مما قام في سبيله من العقبات أثر انتقاض اقاربه عليه وفي طليعتهم أخواه الامير سيد أحمد والامير افندي . غير أن الجزار غافل المفوض العثماني واستولى على بيروت . فأكرهه هذا على الجلاء عنها . وتعرض النكدية لجنده وهم عائدون منها الى صيداء فاشفق الامير يوسف أن ينتقم الجزار منه واسترضاه بمبلغ من المال . وحاول أن يجمعه من البلاد فعارضه اللمعيون وأفضت معارضتهم الى انتقام جنود الجزار منهم ونهبهم غلال اللبنانيين في البقاع استيفاء للمال وانكسار اللمعيين وانصارهم في عدة معارك . وتلا ذلك تنازع الاميرين الاخوين منصور ومحمد الشهابيين ولاية راشيا واستجار اولهما بمحمد باشا العظم والي دمشق فخذله واغتاله . ولم يفت الامير محمد ما كان يضمر الامير يوسف لاخيه هذا من الشر فغدر بابنيه موسى وأسعد فقتل الاول وسمل عيني الثاني وهو آمن على سلامته من الامير يوسف . ثم دهم والي طرابلس أخا الامير يوسف في أهدن فاستظهر هذا عليه وطارده الى اميون حيث استتم الامير يوسف نقمته منه ووطد سلطته في هاتيك الديار

﴿ مصير آل العمر ﴾ وفي خلال ذلك كان الجزار يسعى لتوطيد دعائم سلطانه . وأوجس شراً من الشيخ علي بن ضاهر العمر ففتك بابنيه . ثم اغتال محمد باشا العظم الشيخ علي نفسه ليوهم الدولة أنه لم يكن مماثلاً لابيه . وبقتل هذا الشيخ انحط شأن آل

---

(١) منيت الدولة العثمانية في عهد هذا السلطان بخسارة جسيمة اذ قهرتها روسيا في الحرب التي نشبت بينهما على اثر اقتسامها بولونيا مع النمسا وبروسيا (١٧٧٢) وانتزعت منها بلاد القرم . ثم تذرعت باعتراف السلطان لها بحق حماية الارثوذكس في سلطنته لاثارة خواطرهم عليه . وأردفت ذلك باعلان حمايتها على بلاد الكرج . فشهر السلطان الحرب عليها وشدت النمسا ازرها . ومات وهو قائم على محاربة الدولتين

الامر . وبلغت بهم الحطة والمذلة الى ان تلتمس أخت الشيخ علي وبنته الرزق بالتسول والاستعطاء . وكان نظير أبيه بطلاً كبيراً وفارساً مغواراً . ثم اكتسح الجزار بلاد بشاره وأعمل السيف في رقاب اصحابها بني علي الصغير وبني منكر وبني صعب ولجأ من سلم منهم الى عكار وبذلك دانت البلاد لسلطانه

﴿ الامير يوسف ومزاحموه ﴾ اما الامير يوسف فلم يأمن شرّ مزاحميه الى اجل بعيد . فانبرى اخواه سيد احمد وافندي لتنزعه الولاية (١٧٧٨) واضطر بازاء ما رآه من تعضيد اليزبكية والجنبلاطية لهما وسعي الجزار الى توسيع شقة الخلاف بينه وبينهما الى التنازل لهما عن الولاية والاكتفاء بولاية غزير . ثم ولاه محمد باشا العظم على البقاع واصحابها يومئذٍ الامراء اللمعيون فانتزعها منهم بمعاونة امراء حاصبيا ورشا الجزار بالمال فخلع عليه ونصره على اخويه فاخلدا الى السكون . ثم عادا فقلبا له ظهر المجن على اثر ارجاعه خصمهما الشيخ كليب النكدي من منفاه وتآمرا سراً مع النكدية والجنبلاطية على خلعه . ففضح الشيخ كليب أمرهم واطبق رجال الامير يوسف فجأة على المتآمرين وقبضوا على الامير افندي وساقوه الى دار الحكم فقتله اخوه بيده . وفرّ الامير سيد احمد الى المختاره فاجتمع عليه آل جنبلاط وآل عماد وانصارهم . واستجار الامير يوسف بالجزار فمدّه بجيش كبير وانضوى تحت رايته اخواه الاميران حسن وقاسم وآل تلحوق وعبد الملك ودارت رحى الحرب في عانوت فاحرز الامير يوسف نصراً مبيناً وشدّ محمد باشا العظم ازر العاصي فاستولى على وادي التيم . غير ان الامير يوسف حمل عليهما حملة صادقة وكال لاخيه في معركة المغيثة الشهيرة ضربة شديدة كان لها صدى عظيم في البلاد السورية

﴿ مظالم الجزار ودسائسه ﴾ لما رأى الجزار ان سياسة التفريق التي جرى عليها في معاملة الامير يوسف واخوته انالته مأربه منهم عمد الى اخلافه مع خاله الامير اسماعيل . فالحق بولايته مرج عيون وهي في عهدة خاله هذا . فشق ذلك عليه واستمال الجزار بالمال بتحريض الشيخ قاسم جنبلاط فعهد اليه في ولاية لبنان . ولما كان هذا الامير من وادي التيم والعادة ألاّ يتولى امارة لبنان من كان غريباً عنه اشرك معه في الولاية ابن اخته الامير سيد احمد ومدّهما بعساكره لطرد الامير يوسف من البلاد . فالتقاها الشيخ سعد الخوري بجيش الامير يوسف عند جزين وكسرهما . وغزا بنو علي الصغير بلاد بشاره شدًّا لازر الامير يوسف وطردوا عمال الجزار منها .

فعظم الامر على الجزار ومدّ الواليين الجديدين بجيش ضخم فاكتسحا البلاد وطاردا عدوّهما الى بسكنتا . فاوغل في الفرار الى بلاد عكار وبعث فاسترضى الجزار بمبلغ طائل من المال فخلع عليه ومدّه بعساكره . فانقضّ الامير على دير القمر فجأة وقبض على خاله الامير اسماعيل وزجه في السجن حيث قضى نحبه (١٧٨٦) . ثم اغتال خاله الثاني الامير بشير نجم وسمل عيني اخيه الامير سيد احمد (١٧٨٧) ونكب انصارهم ولا سيما الجنبلاطيـة نكبة عظيمة واستعـاد هيبته وسطوته . فاشفق الجزار ان ينتهز فرصة تغيبه في دمشق حيث كان قد عُهد اليه في ولايتها ليقلب له ظهر المجن . فعمد الى تقليم اظافره احتياطاً للطوارىء واوعز الى نائبه في عكاء بالفتك ببني علي الصغير فصدع بالامر . وكان ذلك ضربة شديدة على الامير لان هؤلاء المشايخ كانوا من خيرة انصاره . وجاء موت مدبره الشيخ سعد الخوري اثر مرض اعتراه وهو معتقل في قلعة دمشق (١٧٨٦) ضربة عظيمة اشد من الاولى . وحدث ان المماليك ثاروا على الجزار وحصروه في عكاء وشد الامير يوسف ازرهم فحنق الجزار عليه وحرّض الامير علي الشهابي على الثأر لابيه الامير اسماعيل منه ومدّه بكتيبة من جنده . فحشد الامير يوسف جيشه بقيادة الامير بشير قاسم الشهابي «الكبير» والشيخ قاسم جنبلاط ومعهما زعماء المماليك واحرز في الحرب التي دارت رحاها بينـه وبين عدوّه في البقاع نصراً عظيماً . ثم استأنف الامير علي القتال بجيش جـديد مدّه به الجزار ففقد النصر لالويته . ونكث الجنبلاطية عهد الامير يوسف واخذوا يدسون له الدسائس . فسئمت نفسه النزاع وصحت عزيمته على اعتزال الحكم

﴿ ولاية الامير بشير الشهابي الكبير ﴾ تخلى الامير يوسف عن الولاية وليس بين الامراء من هو أصلح لها من الامير بشير قاسم . وكان اهل البلاد يحبونه ويتوسمون فيه الخير والجزار معجب ببسالته وجرأته . فقلده زمام الولاية على الشوف وكسروان وهو يرجو أن يكون اكثر انقياداً له من سلفه . واوعز اليه بطرد الامير يوسف من البلاد — والعهد قريب بتخلي سلفه هـذا له عن الولاية بمحض اختياره وليس بينهما مايقضي عليه بالاساءة اليه — فطارده مكرهاً الى الحقد وهو يتفادى من الحاق الاذى به . ثم ارغمه الجزار على التشديد في مطاردته وانجده بفرقة من جيشه . فكان ذلك فاتحة العداء بين الاميرين . وشد الحمادية ومشايخ جبـة بشري ازر الامير يوسف فاستظهر على خصمه . ثم حمل عليه الامير بشير حملة صادقة ودحره

فانهزم الى اهدن . وتألبت عليه عساكر الجزار من كل صوب . فامعن في الفرار الى بعلبك وتصدى له صاحبها الامير جهجاه الحرفوش فطرده منها . واتفق واليا دمشق وطرابلس على تقليده ولاية جبيل (١٧٨٩) . فحال تعرض الجزار والامير بشير له دون توطيد سلطته فيها واضطر ان يفر الى حوران

أما السلطان سليم الثالث فتبوأ العرش (١٧٨٩ — ١٨٠٧) والحرب ناشبة بين الدولة وعدوتيها روسيا والنمسا . فحاول تنظيم الجيش وبث روح النخوة فيه . ففشل واكتسحت الجيوش الروسية والنمساوية املاك الدولة في البلقان واكرهتها على توقيع عهدتي صلح (١٧٩١ و١٧٩٢) مجحفتين في مجمل شروطهما بحقوقها . وفي عهد هذا السلطان استولى نابوليون بونابرت على مصر (١٧٩٨) واكتسح فلسطين (١٧٩٩) . الا انه عجز عن فتح عكاء لتفشي الطاعون في عسكره فعاد الى مصر (١٨٠٠) . وفي السنة التالية جلت عساكره عن وادي النيل [1] . وكان السلطان

---

(١) حمل نابوليون على مصر وحجته الظاهرة القضاء على سلطة المماليك وغرضه الحقيقي أن يتسلط على ارض الفراعنة لاستخراج كنوزها الطبيعية والاثرية واتخاذها قاعدة لاعماله الحربية في الشرق الادنى . وقد جاءت اعمال البعثة العلمية التي استصحبها الى مصر ممهدة للعلماء الذين نسجوا على منوالها فيما بعد سبيل النهوض بهذه البلاد وتحطيم قيودها والسير بها في مضمار الرقي الادبي والمادي شوطاً بعيداً لا نظير له في تاريخ الشرق . اما الفتح الحربي فكان دون هذا الفتح الادبي العظيم فائدة وشأناً . ذلك ان نابوليون حمل على مصر واوربا على وشك النهوض لتمزيق البرقع الكثيف الذي حجب به نور الشمس عن بصرها . فلم يكد يقضي على سطوة المماليك في معركة الاهرام الشهيرة التي خاطب فيها جيشه بكلمته المأثورة : « من أعلى هذه الاهرام اربعون قرناً تشهد فعالكم » حتى انبرت له انكلترا وسحقت اسطوله في معركة ابي قير واقتدت اثرها روسيا واتفقتا مع الدولة العثمانية على محاربته وحالت اساطيلهن دون اتصاله بفرنسا . وحشدت الدولة جيوشها في دمشق تحفزاً للزحف على مصر . فرأى البطل الكورسكي أن يعاجلها بضربة قاضية قبل أن تستكمل عدتها . وزحف على سوريا بقسم من جيشه فاكتسح فلسطين وفرّ الجنرال كليبر جيش دمشق عند جبل طابور . الا أنه تعذر على نابوليون فتح عكاء لتألب الاعداء عليه من كل صوب ولاسيما ان الطاعون تفشى في جيشه فقفل راجعاً الى القاهرة . وكان الجيش العثماني وصل اليها بطريق رودس فدمره واسر قائده ثم اضطر ان يعود الى فرنسا فعهد في قيادة جيش مصر الى الجنرال كليبر وقد هلك نصفه بالاوبئة والحروب . فاستأنف هذا الحرب وبطش بالجيش العثماني وقهر المماليك فدانت البلاد له . غير ان صعلوكاً يسمى سليمان الحلبي اغتاله فتطرق الضعف الى الجيش الفرنساوي وفقد قوته المعنوية فسلم قائده بعد ان منيا بخسارة جسيمة في ما تلا ذلك من المعارك التي خاضها مع خصومها ضد

شديد الاعجاب بنابليون ولذلك لما انتخب هذا القائد العظيم رئيساً للجمهورية الفرنساوية لم يتردد السلطان في توقيع عهدة الصلح التي ابرمها معه (١٨٠١) وقضت بتوسيع امتيازات فرنسا في السلطنة العثمانيــة وانقلبت عداوتهما الى صداقة وثيقة العرى . فغضبت روسيا وانكلترا لذلك وشهرتا الحرب على الدولة واقتحم الاسطول الانكليزي مضيق الدردنيل فاضطره الجنرال سبستياني مندوب نابوليون لدى السلطان بما بذله من الجهد في تحصين الاستانة الى رفع الحصار عنهــا والخروج الى البحر المتوسط (١٨٠٧) وابحر الى الاسكندرية فاحتلها وعجز دون رشيد لوقوف محمد علي باشا في وجهه [1] . وانصرف السلطان الى اصلاح شؤون الدولة لاقالتها من عثرتها . وعني خاصة بالجندية فوضع لهــا نظاماً مماثلاً للانظمة الاوربية توطئة لالغاء وجاقات الانكشارية . فعارضــه هؤلاء واضرموا نار الفتن في السلطنة (١٨٠٥) وخلعوه بفتوى من شيخ الاسلام موقظ هذه الفتن (١٨٠٧) جاء فيها « ان السلطان الذي يجري على انظمة الافرنج وعاداتهم لا يصلح للملك » ونودي بالسلطان مصطفى الرابع

﴿ خاتمة حياة الامير يوسف ﴾ كانت سورية في عهد السلطان سليم مرسحاً للفتن والحروب واهلها يتفانون ويتطاحنون في تأييد الحكام وخذلانهم . وكانت فاتحة ملكه شؤماً على الامير يوسف حيث ظفر فيها برضى الجزار (١٧٨٩) . فكان ما علقه على ذلك من الرجاء بالفوز سراباً لامعاً . ذلك انه انتهز فرصة انصراف الامير بشير الى شؤون الجرافشة اصحاب بعلبك لانتزاع الولاية منه (١٧٩٠) . فاحبط هذا مسعاه ورشا الجزار بالمــال فاقره في ولاية لبنان وزج الامير يوسف في السجن . وجار الامير بشير على انصاره فتآمر أعيان المتن على خلعه ونادوا بالامير حيدر بن ملحم شهاب وابن أخيه الامير قعدان وانبروا لقتاله . فكسرهم ووشى بالامير يوسف

الجيشين الانكليزي والعثماني . وابحر القائد الافرنسي بقية الجيش على الاسطول الانكليزي الى فرنسا واستعادت الدولة ولايتها على مصر (١٨٠١)

(١) نشأ محمد علي في مدينــة قوله بمقدونيا وتطوع في الجيش العثماني الذي حارب نابوليون في مصر وابلى في معركة ابي قير بلاء حسناً فتعاظم أمره وقهر الانكشارية في القاهرة وقضى على سطوة خسرو باشا في دمياط (١٨٠٤) ثم قهر البرديسي ومحمد بك الالفي وهم أكبر أقطاب المماليك فانضت الولاية اليه واقره الباب العالي فيها (١٨٠٥) ثم حاول نقله الى سلانيك باغراء الانكليز فعارضه علماء مصر . واجهز محمد علي على بقية المماليك في حادثة القلعة الشهيرة (١٨١١) وقرضهم فأمن شر مزاحميه ومعارضيه ودانت البلاد لسلطانه

الى الجزار بانه موقد نار هذه الثورة . وكان الجزار في طريق الحج فامر نائبه في عكاء بشنق الامير يوسف ومدبره الشيخ غندور الخوري . ثم بعث ينهاه عن شنقهما فتجاهل نهيه باشارة ابن السكروج ونفّذ فيهما الامر . وقد حكم الامير يوسف ٢٧ سنة صرفها في مقارعة الخطوب ومعالجة عبر الدهر وعظاته . ومع انه احرز من السطوة وعظم الشان شأو الامراء العظام فانه لم يبلغ شأو سميدي الطالع منهم . وكان مسيحياً كما يؤخذ من المكاتبات التي دارت بينه وبين البابا بيوس السادس في شان البطريرك يوسف اسطفان

﴿ الامير بشير وابناء الامير يوسف ﴾ واثار قتل الامير يوسف سخط المتنين على الامير بشير فازدادوا هياجاً . وغضب الجزار على ابن السكروج وشنقه . فاشفق الامير بشير ان يلحقه به وتظاهر بالحزن على ضحيته . فجازت حيلته على الجزار ونصره على الثوار . ونشبت بينه وبينهم في صحراء الشويفات معركة شديدة اسفرت عن اندحارهم ولكنهم ثبتوا على مقاومته ومحاربته الى السنة التالية (١٧٩١) . كل ذلك وزمام الحكم في يد الامير حيدر والامير قعدان والثوار يؤيدونهما . وشعر الجزار بعجزه عن اكراه اللبنانيين على الانقياد الى الامير بشير فاخرجه مع اخيه الامير حسن من لبنان واقر الاميرين الواليين في منصبهما ارضاء لاعيان البلاد . فعظم شأنهما وتخلى لهما خليل باشا العظم حاكم طرابلس عن ولاية جبيل . ثم عهد فيها الى ابناء الامير يوسف (١٧٩٢) فاحسنوا سياستها واستمال مدبرهم جرجس باز بحذقه وحكمته اعيان البلاد اليهم فعظم شأنهم . وفي اثناء ذلك كان نفوذ الاميرين الواليين آخذاً في التقلص فتنازلا لهم بموافقة الجزار عن الولاية لئلا تفضي الى الامير بشير عدوهما الالد (١٧٩٣) . فنقم الامير عليهم واضرم محازبوه وعلى الاخص اللمعيون والجنبلاطية نار الثورة في المتن والشوف فقمعها ابناء الامير يوسف بمعاونة عساكر الجزار ونُفي الامير بشير الى الناصرة . ثم لمّ انصاره شعثهم واستجمعوا قواتهم فتهيبهم الجزار واعاده الى الولاية ومده بكتيبة من الجند فطرد ابناء الامير يوسف من الشوف وبطش بانصارهم في شمر العبادية فدانت البلاد لسلطانه . ثم عاد الجزار فاعتقله في عكاء وخلع على اعدائه الامراء (١٧٩٤) فانزلوا بانصاره الويلات وصبوا جام نقمتهم على الجنبلاطية والعمادية فنادى هؤلاء بالثورة وشد ازرهم الامير عباس شهاب ولكنهم فشلوا واستتم الجزار والامراء نقمتهم منهم . ثم قوي حزب الامير بشير

فافرج الجزار عنه وخلع عليه لقاء مبلغ كبير من المال ومده بفرقة من جنده (١٧٩٥) فزحف على لبنان ودارت رحى الحرب في قب الياس فاستظهر على ابناء الامير يوسف وطاردهم اخوه الامير حسن الى بلاد عكار فتصدى له والي طرابلس وولى أحدهم الامير سليم على جبيل فقاتله الامير حسن في عمشيت واستظهر عليه (١٧٩٦) وهزم



الامير بشير الشهابي

عساكر طرابلس . وحاول هؤلاء الامراء اثبات للامير بشير بالنجدة الكبيرة التي مدهم بها عبد الله باشا العظم والي دمشق اجابة لطلب ابنه والي طرابلس فاخفقوا وكسرهم الامير في قب الياس شر كسرة وهزمهم الى دمشق ونكب انصارهم النكدية بعد ان اغتال كبارهم . ثم استرضوا الجزار فاطلق لهم الامان . وفي اثناء ذلك استولى نابوليون على مصر وبلغ الجزار ان الامير بشير يمهد له السبيل لفتح سورية فانتزع الولاية منه (١٧٩٨) وعهد فيها الى اعدائه الامراء . ثم تنصّل الامير من التهمة فاعاد الحكم اليه ولكنه ظل في ريب من امره

﴿ الامير بشير ونابوليون ﴾ لما اكتسح نابوليون بونابرت فلسطين وحصر عكاء (١٧٩٩) وقف الامير بشير متردداً بين الانحياز اليه أو الى الجزار . وعاتب نابوليون امير لبنان على اعراضه عنه . فجاء هذا العتاب مؤيداً لحجته لدى الجزار في عدم ممالئته لقائد الفرنسيس . ووقع ذلك من نفس الاميرال سميث قائد الاسطول

الانكليزي أحسن وقع فعاهد الامير على كف أذى الجزار عنه . غير أن الجزار أصر على إسناد الولاية الى اولاد الامير يوسف خلافاً وصول الصدر الاعظم بجيشه الى دمشق بعد سنة اذ استماله الامير بشير بالهدايا النفيسة فانعم عليه بولاية لبنان [illegible] في شؤونها [illegible] الصدر الاعظم يحاول بمعاونة الانكليز وأنصارهم كسر شوكة الامير . فتصدى له عبد الله باشا العظم ونصر الامير عليه . فغضب الشاه هذا وخلع على ابناء الامير يوسف وعزز جيشهم بعشرة آلاف مقاتل . فيئس الامير بشير من النجاح ولاسيما انه استنجد اللمعيين وغيرهم من أعيان البلاد فخذلوه ولاذ بالفرار واستتب الامر لاعدائه . ثم أقبل على غزة برفقة صديقه الاميرال سميث والصدر الاعظم فيها فرحب الصدر به وعرض عليه أن يمده بقسم من جيشه لاسترجاع ولايته والانتقام من الجزار فابى حذراً من الفشل وابحر الى قبرص ثم الى مصر وهو يرجو أن يعود الى سورية في معية الصدر الاعظم فخاب رجاؤه لان الجنرال كليبر كان قد كسر الصدر الاعظم كسرة عظيمة وتقهقر هذا بفلول جيشه الى يافا . فعاد الامير على الاسطول الانكليزي الى لبنان واعتصم بحصن عكار

وحدث في ذلك الحين ان ابناء الامير يوسف جاروا على اللبنانيين واثقلوا كواهلهم بالضرائب اشباعاً لمطامع الجزار فثار المتنيون عليهم ونادوا بالامير بشير وتأهب الامراء وانصارهم للقتال فوفق اعيان البلاد بين الفريقين على ان يتولى أبناء الامير يوسف بلاد جبيل والامير بشير بقية البلاد . غير ان هذا الصلح جاء مبتسراً بازاء دسائس الجزار ومعارضة جرجس باز فاقره سيف الامير بشير في معركة الشويفات حيث قضى على جيشهما واكره الجزار على الاذعان لمشيئة اللبنانيين صاغراً . وكان ذلك خاتمة حوادث القرن الثامن عشر في الديار السورية

سورية في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين

دخل القرن التاسع عشر وسورة الاضطراب في سورية على أشدها . واظهر عوامل التفريق المبيدة القارضة التي تجلت فيها أنها بدت بأتم مظاهرها في لبنان حيث كان الانقسام قد فعل في الشعب اللبناني فعل النار في الهشيم . فكان فرقاً واحزاباً لا رابط لها ولا صلة بين اجزائها المتعددة المتنابذة الاصلة المنفعة الذاتية التي تضيع في جنبها المصلحة المشتركة وتكون عرضة للتفكك والتلاشي لاول حادث يطرأ عليها . كل ذلك والسلطة في الجبل لمن كان من امرائه اوفر ثروة واقوى شكيمة من سواه فيستهوي رجال الدولة بماله فيركنون اليه ويتزاحمون على خطب مودته او يرهبهم بسطوته فيتجنبون اغضابه حتى اذا ما انسوا منه غفلة بطشوا به وظفروا ببغيتهم منه

﴿ انقضاء ولاية الجزار ومصير ابناء الامير يوسف وبني باز ﴾ ذلك كان شأن السوريين واللبنانيين مع من عهدت الدولة اليه من رجالها في سياسة بلادهم وصيانة ارواحهم وارزاقهم وهو ما نجد له في تاريخ لبنان وسورية من الامثلة الحية المحسوسة ما لا يقع تحت حصر ولاسيما في عهد الجزار السفاح الشهير

تذرع الجزار بانقسام كلمة اللبنانيين وتعدد احزابهم في مفتتح هذا القرن لقضاء لبانته منهم . وقد تقدم لنا انه كان ناقماً على الامير بشير يتحين الفرص للايقاع به . وكان الامير عباس شهاب طامعاً في الولاية والمشايخ العمادية يؤيدونه . وقام من جهة اخرى الامير سلمان سيد احمد يلتمسها لنفسه ومن ورائه الشيخ بشير جنبلاط . فجاء خذل الشهابيين وانصارهم لعميدهم الاكبر على هذا النحو ممهداً للجزار سبيل الانتقام منه . فأيد الامير عباس وزحف هذا على دير القمر فانبرى له الامير بشير ومعه ابناء الامير يوسف والامير سلمان وهزموه الى المتن (١٨٠٢) وانحاز اللمعيون وآل تلحوق الى الامير بشير فاستكتبهم على يد الشيخ بشير جنبلاط وثيقة بانهم لا يقبلون سواه اميراً عليهم . فاضطر الجزار أن يعيده الى الولاية بعد ان اوعز اليه بهدم جونيه . وكان ذلك آخر العهد بحكم الجزار فقضى نحبه سنة ١٨٠٤ . واغتصب ولاية عكاء اسماعيل باشا فلم يعترف الامير بشير به . ووقع ذلك وقعاً حسناً لدى الباب العالي فالحق بولايته دمشق وصيدا وطرابلس وولى على عكاء ابراهيم باشا ففتحها بمعاونة الامير وفتك باسماعيل باشا . وأعجب هذا الوالي بما أبداه جرجس باز في

حصار هذا الحصن المنيع من آيات البسالة والدهاء فقربه منه . وهاج ذلك سخط الامير بشير على ابن باز ولا سيما انه كان يحفظ الفل له ولاخيه عبد الاحد لما أتياه من الاعمال الثانية لمصلحته تأييداً لابناء الامير يوسف فعقد العزيمة على التخلص منهما وقد ظفر ببغيته فقتلهما على يد البزبكية وقبض على الاميرين حسين وسعد الدين ابني الامير يوسف وسمل عيونهما (١٨٠٧)

نودي بالسلطان مصطفى الرابع (١٨٠٧ — ١٨٠٨) وسطوة الانكشارية آخذة في الازدياد وسرت روح الثورة في الجيش وهو قائم على محاربة الروس فاختل نظامه وكاد الروس يقهرونه لو لم يغلبوا على امرهم ازاء حملات نابوليون الصادقة في بلاد البلدان ويضطرهم الظافر الى مصالحته على شروط في مصلحة الترك (١٨٠٧) . على ان ذلك لم يحل دون تمادي الثوار في طغيانهم فقتل السلطان بسلفه السلطان سليم وطرح لهم جثته فازدادوا هياجاً وخلعوه ونودي بالسلطان محمود الثاني .

طالت خلافة السلطان محمود (١٨٠٨ — ١٨٣٩) الا انها كانت حافلة بالقلاقل والحروب . عهد في الصدارة الى البيرقدار أحد زعماء الثوار وهو يرجو ان يتمكن بواسطته من تنظيم وجاقات الانكشارية فعارضوه . وأراد ارهابهم بقتله السلطان مصطفى والقاء جثته اليهم ففشل واكرهوه على الاذعان لمشيئتهم . ثم انصرف الى تأمين السلطنة من الخارج فصالح الانكليز (١٨٠٩) . اما الروس فابوا الصلح وظلت الحرب سجالاً بينه وبينهم الى سنة ١٨١٢ اذ صالحوه على شروط في مصلحته . غير ان هذا الصلح أفقده صداقة نابوليون لان الروس تفرغوا لمحاربته وارغموه على الجلاء عن بلادهم بعد ان هلك معظم جيشه . ثم ثار الصربيون على الدولة فقهرتهم (١٨١٧) وتلا ذلك ظهور الوهابيين في بلاد العرب فقهرهم محمد علي والي مصر وردهم الى طاعة الدولة على يد ابنيه طوسن باشا وابراهيم باشا (١٨١١ — ١٨١٩) ثم قام اليونان بثورتهم الشهيرة (١٨٢٢) التي افضت الى استقلالهم (١٨٣٠) بعد حروب هائلة اشترك فيها محمد علي في جانب الدولة وفرنسا وروسيا وانكلترا في جانب اليونان . ثم احتلت فرنسا جزائر الغرب . واستولى محمد علي على سورية والاناضول (١٨٣١ — ١٨٣٣) . ومات السلطان محمود والازمة السياسية التي نشأت عن المسألة المصرية على أشدها وخلفه السلطان عبد المجيد [1]

---

(١) كان الصلح الذي ابرمه السلطان محمود مع الروس وبالاً على الدولة لانه مهد للروس

وقد توالت في عهد السلطان محمود على البلاد العثمانية محن شديدة تضاءل دونها ما منيت به في عهد سلفائه من الخطوب المدلهمة. فثبت الامير بشير بابني باز ونكب ابناء الامير يوسف. فاطمأن على سلامته وسلطانه الى حين اذ عهد اليه سليمان باشا والي صيداء بولايتي الشوف وكسروان على مدى الحياة (١٨٠٩). ثم نقل هذا الوالي الى دمشق فانتهز فرصة انصراف وزيرها يوسف باشا الكنج الى محاربة الوهابيين في حوران لانتزاع الحكم منه. وقد ظفر بمراده بمعاونة الامير بشير فصادقه وآخاه وولى ابنه الامير قاسم على جبيل وابنه الثاني الامير خليل على البقاع. ونصر الامير دروز جبل الشيخ على أعدائهم فانقادوا اليه وتهيبه اهل البلاد

﴿ عامية أنطلياس ﴾ وفي سنة ١٨١٩ مات سليمان باشا وبموته انقضى عهد الراحة النسبية التي تمتع بها الشعب السوري في الفترة القصيرة التي عقبت موت الجزار اذ تولى زمام الحكم في صيداء عبد الله باشا الخازندار وتحرش بالامير بشير فاسترضاه هذا بمليون قرش. واراد الاميران يجبيا المبلغ من البلاد فعارضه اللبنانيون في المتن وكسروان. وآنسوا من المطران يوسف اسطفان ميلا الى تعضيدهم فازدادوا هياجاً وعقدوا في انطلياس برئاسة الشيخ فضل الخازن اجتماعاً عظيماً قرروا فيه عدم دفع الضرائب مرتين. وأكرهوا الخازندار على مجاراتهم وخلع الامير بشير وتولية

سبيل الانتصار على نابوليون فتخلى هذا القائد العظيم عنها في حروبها ضد الصربيين (١٨١٢ — ١٨١٧) ومنيت بخسائر فادحة اقعدتها عن كسر شوكة الوهابيين بنفسها يوم انقضوا عليها واستولوا على المدينة ومكة ودانت لهم البلاد العربية فاضطرت ان تلجأ الى سيف محمد علي لاخضاعهم وهي غافلة عما كان يمني النفس به من التوسع في الملك حتى خرج عليها وأوغلت جيوشه في بلادها وكسرتها في معركة نصيبين تلك الكسرة العظيمة التي تصدعت لها اركان العرش العثماني. ووقفت فرنسا في المسألة المصرية في جانب محمد علي وقفة كادت تفضي الى حرب اوربية شاملة وتقضي على استقلال الدولة العثمانية لولا تصدي انكلترا لها وابرامها مع روسيا وبروسيا والنمسا معاهدة سنة ١٨٤٠ التي ضمنت سلامة الدولة. واعراض هذا السلطان عن فرنسا كان له نتيجة اخرى سيئة بدت على أتمها في حرب اليونان حيث خليت الدولة على امرها واطبقت روسيا على ولاياتها البلقانية. ولولا توسط اوربا وارغامها السلطان على الاعتراف باستقلال اليونان والفلاخ والبغدان وبحق المرور لسفن روسيا في مضيق الاستانة لاستولى الروس على عاصمة السلطنة (١٨٢٩). على ان قضاء السلطان محمود على سطوة الانكشارية وافنائه لهم عن بكرة ابيهم اثر معارضتهم له في تنظيم الجيش (١٨٢٦) وانقاذه السلطنة من شرهم انما هو مأثرة جليلة من المآثر الغراء التي عجز اسلافه دونها

الاميرين حسن علي وسلمان سيد احمد الشهابيين بعد أن تظاهرا بالاسلام . فانصرف الواليان الجديدان الى مطاردة الامير بشير وأرغماه على الفرار الى حوران مع من انحاز اليه من اللمعيين واستتب لهما الامر . غير انهما جارا على اهل البلاد فقلبوا لهما ظهر المجن واكرهوهما على التخلي لخصمهما عن الولاية . واضطر الخازندار الى الاذعان لهم

﴿ عامية لحفد ﴾ على ان اتفاق كلمة اللبنانيين على طاعة الامير بشير لم يثن الاميرين العاصيين عن عزمهما . فتذرعا بما فرض على البلاد من الضرائب الاضافية لاهاجة الخواطر عليه ولا سيما في بلاد جبيل حيث حشد معارضوه جماً غفيراً من أنصارهم في قرية لحفد ونادوا بالثورة . فزحف بجيشه عليها كالسيل الجارف . الا انه اضطر بازاء ما شاهده من تكاثر عددهم وتكاتفهم ان يخفف من وطأته عليهم . فطمعوا بحلمه وناوشوه في غرفين . فحمل عليهم حملة صادقة رهزمهم . وتعرض الاميران العاصيان بثوار المتن والقاطع للشيخ بشير جنبلاط في طريقه الى جبيل حيث كان الامير بشير بانتظاره فاستظهر عليهما . وخذلهما الخوازنة وأعيان جبة بشرى فلاذا بالفرار . ودخل أعيان البلاد في طاعة الامير بشير فعفا عنهم بعد ان تقاضى منهم جزية باهظة توسل بها لاستمالة الخازندار واكتساب مودته

﴿ درويش باشا والامير بشير ﴾ لم يكد الامير بشير يفرغ من قمع ثورة اللبنانيين حتى وقع بينه وبين درويش باشا والي دمشق خلاف أفضى الى امتشاق الحسام . فتراوحت كفة النصر بين الجانبين على رغم انحياز عبد الله باشا والي صيداء الى جانب الامير وحسن بلاء ابنه الامير خليل . ثم شد ابنه هذا على جيش دمشق وقهره . فعظم الامر على درويش باشا وأعاد الكرة عليه ففشل . وكان الامير له ولحلفائه الامراء منصور وفرس وسلمان سيد احمد الشهابيين ضربة أشدّ من الاولى . وطرب عبد الله باشا لهذا النصر المبين فنفح الامير بخلعة نفيسة وسيف مرصع بالجواهر الكريمة . ثم حاول درويش باشا استمالة الامير بشير فخذله الامير وقاتله في معركة المزّة الشهيرة ومزق جيشه تمزيقاً ولاذ الامراء بالفرار . فشق على الباب العالي انكسار جيشه وولى درويش باشا على صيداء ومدّه بنجدة عظيمة بقيادة والي حلب . فاشتد ساعده واضطر الامير بشير ان يتخلى عن الحكم ويغادر البلاد الى مصر ومعه ابناه الامير خليل والامير امين . فعهد الوزيران في ولاية لبنان الى الامير عباس شهاب . ثم زحفا لفتح عكاء وطرد الخازندار منها (١٨٢٢)

﴿ الامير بشير ومحمد علي باشا ﴾ وصل الامير بشير الى مصر ومحمد علي يرقب الفرص لفتح سورية . وادرك بثاقب بصيرته أن رجلاً عظيماً نظير الامير بشير يبلغه المراد ان هو ظفر بمودته . فرحب به أعظم ترحيب ودعاه الى تعضيده في ما كان يتمنى النفس به من الفتح والاستعمار . فصادفت دعوته عنده هوى من نفس الامير وبعث يسأل عبد الله باشا الثبات على الحصار ريثما يصل اليه بالجيش المصري . وفي أثناء ذلك عفا الباب العالي عن الامير وعن صديقه عبد الله باشا اجابة لملتمس محمد علي . فركب الامير الى عكاء ومعه سلحدار من لدن عزيز مصر يحمل الى مصطفى باشا فرمان الدولة بالعفو عن الخازندار وكتاباً من محمد علي برفع الحصار عن المدينة . فاذعن الوزير وانصرف . واستأنف الامير بشير سيره الى لبنان ودخل بتدين ظافراً

﴿ حركة المختارة ﴾ وفي أثناء تغيب الامير بشير عن لبنان توثقت عرى المودة بين صديقه الشيخ بشير جنبلاط وبين مزاحمه الامير عباس . فنقم على ابن جنبلاط لخيانته عهده . وتآمر هذا مع الامراء اللمعيين وفريق من الشهابيين على خلعه . وحاول أن يستميل عبد الله باشا الى الامير عباس فخذله واضطر الشيخ بشير أن يفر بمحازبيه الى ايالة دمشق فحوران . ثم اشتد ساعده بمن انضم اليه من آل ارسلان ونكد والعماد وغيرهم . فجمعوا قواتهم في المختارة واطبقوا بها على بتدين . واراد الامير بشير اخذهم باللين فاصروا على المقاومة وانقض عليهم بنخبة رجاله الاشاوس وكسرهم . غير انهم ثبتوا له واعاد الكرة عليهم ولقي من اقبال وزيري دمشق وصيداء والاميرين شديد مراد وحيدر اسمعيل اللمعيين على تعضيده ما شدد عزمته فاستظهر على العصاة ولاذوا بالفرار فتعقبهم ابنه الامير خليل ووقع فريق منهم في كمين نصبه لهم قائد جيش دمشق فقبض عليهم وبينهم الشيخ بشير جنبلاط والشيخ امين العماد فشنقهما عبدالله باشا في صيداء . وانتقم الامير بشير من الامير عباس ونسيبيه الاميرين الاخوين فارس وسلمان سيف احمد فسمل اعينهم وقطع رؤوس ألسنتهم

﴿ غزوة اليونان لبيروت وثورة النابلسيين ﴾ وفي خلال هذه الفترة كانت حرب الاستقلال في بلاد اليونان على أشدها وغزا الاسطول اليوناني بيروت (١٨٢٦) فصده اهلها المسلمون عنها . واتهم النصارى بالاتفاق مع الاروام على هذه الغزوة واراد عبد الله باشا معاقبتهم فحال توسط الامير بشير دون ذلك . وعقب هذه الغزوة انتقاض النابلسيين على عبد الله باشا واعتصموا في قلعة سانور الشهيرة (١٨٣٠) .

وثبتوا على الحصار ثلاثة اشهر ابدوا فيها من آيات البسالة ما اوقع الرعب في قلب الوزير. واخترقوا نطاق الحصار وكادوا يوقعون بجيشه لو لم يتصدَّ لهم الامير بشير وابنه الامير خليل ويقهراهم ويكرهاهم على التسليم. ودُكَّت القلعة من اساسها وعاد الامير الى لبنان وألوية الظفر تخفق فوق رأسه

﴿ حملة ابراهيم باشا على سورية ﴾ لما دانت البلاد المصرية لسلطان محمد علي تاقت نفسه الى الفتح والتبسط في الملك. وكانت سورية مطمحاً لبصره. وقد أتيح له أن يكون رجل عظيم كالامير بشير موالياً له وممهداً له السبيل الى تحقيق امنيته. ووجد في انصراف الدولة الى حرب اليونان وفي امتناع الخازندار عن تسليمه من فر من العمال المصريين الى ايالته هرباً من السخرة أحسن فرصة لاكتساح الديار السورية. فحمل عليها ابنه ابراهيم باشا الفاتح الشهير ومعه سليمان بك الفرنساوي بجيش عظيم (١٨٣١) وفتح غزّة ويافا والقدس ونابلس وحلّ في حيفا ملتقى الجيشين البحري والبري فجعلها قاعدة لاعماله الحربية. واستأنف الزحف على عكاء فحصرها براً وبحراً. ووافاه الامير بشير اليها بنخبة رجاله. وزحف عثمان باشا والي حلب بعشرين الف مقاتل لرد الغازي. فانبرى له الامير خليل ابن الامير بشير بألوف مقاتل من اللبنانيين وقهره عند طرابلس. ثم استتم نقمته منه بمعاونة مصطفى أغا بربر حاكم طرابلس. وتعقبه الفاتح المصري وقهره في جوار حمص ومزّق جيشه. ثم عاد الى عكاء وفتحها عنوة بمعاونة الامير بشير وأسر عبد الله باشا (١٨٣٢). وزحف الفاتحان على دمشق فدخلاها ظافرين. وكسرا حسين باشا القائد العثماني على بحيرة حمص وطارده البطل المصري الى حلب وفتحها عنوة بعد معركة هائلة بيعت فيها الارواح بيع السماح (يوليو ١٨٣٢). ثم اجهز على جيش عثمان باشا في بوغاز كيليكيا. واوغل في الاناضول وكسر رشيد باشا عند قونيه كسرة عظيمة (دسمبر ١٨٣٢) ووقف عند مدينة بورصة. وتلا ذلك اضطرام نار الفتن في بلاد صفد وطرابلس وجبال النصيرية وبلاد عكار (١٨٣٣) فقمعها الامير بشير وابنه الامير خليل. واراد ابراهيم باشا سد الفراغ الذي وقع في صفوف جيشه فأكره دروز لبنان على الانتظام في سلك الجندية بعد ان جمع أسلحتهم وأسلحة المسيحيين (١٨٣٤). وأراد في السنة التالية تجنيد دروز حوران ووادي التيم فأبوا الاذعان وانحاز اليهم العرب وقاتلوا والي دمشق وكسروه. وشد ازرهم شبلي العريان البطل الشهير

فاستفحل أمرهم وانزلوا بالجيش المصري خسارة فادحة حتى نشط ابراهيم باشا لقتالهم بنفسه . فوفق بمعاونة الامير خليل ومن انضوى تحت رايته من نصارى لبنان الى كسر شوكتهم واكراههم على القاء السلاح . واستوجب الفاتح المصري بسالة تحيدهم ثاني المرين فمهد اليه في قيادة كتيبة من الفرسان . ونزلا ذلك خروج عرب الصفا عن طاعة ابراهيم باشا فكبح جماحهم الامير مسعود ابن الامير خليل (١٨٣٦)

﴿ المسألة المصرية ﴾ كان لفتوحات ابراهيم باشا صدى عظيم في اوربا . واشفقت روسيا ان تسقط الاستانة في يده وهي طامعة فيها فمدت الدولة العثمانية بفرقة من جيشها . وأبى محمد علي التخلي عما فتحه من بلادها لقاء اعطائها له ولاية مصر على مدى العمر وتخويله الحق في تعيين ولاة سورية (١٨٣٣) واستأنف ابراهيم باشا القتال في جوار نصيبين فاحرز نصراً عظيماً وسحق الجيش العثماني . وعقب ذلك موت السلطان محمود وتسليم الاسطول العثماني الى الاسطول المصري فازداد الشر تفاقماً . وتعذر على الدول حل المسألة المصرية على وجه يتفق مع مصالحها المتناقضة . وتفاقم الخلاف بين فرنسا وانكلترا حتى خيف من نشوب حرب اوربية . وكانت فرنسا تؤيد محمد علي وتلح في اعطائه مصر وسورية وآطنة . وعرضت انكلترا ان يعطى نصف سورية الجنوبي بعد اخراج عكا منه . وعقد مؤتمر في لندن (١٨٤٠) فلم يسفر عن نتيجة حاسمة . وأراد تيارس الوزير الفرنساوي الشهير اكراه الباب العالي على الانصياع لمشيئة دولته ففشل . واتفقت انكلترا وروسيا وبروسيا والنمسا على اخراج الجيش المصري من بلاد الدولة عنوة وعهدن الى انكلترا والنمسا في تنفيذ هذا الاتفاق (١٨٤٠)

﴿ صدى المسألة المصرية في لبنان وسورية ﴾ كان لتصرف الدول في حل المسألة المصرية على الوجه المتقدم تأثير شديد في الديار الشامية . فشرع عمال انكلترا في تحريض اللبنانيين على خلع طاعة محمد علي . وخاف ابراهيم باشا والامير بشير ان يفضي ذلك الى ما لا تحمد عقباه . فعمدا الى جمع الاسلحة منهم . فقاوموها واضطرمت نار الفتن في انحاء شتى من البلاد . وتولى قيادة العصاة ابو سمرا غانم البكاسيني والشيخ فرنسيس ابو نادر الخازن وفريق من الامراء الشهابيين واللمعيين الذين كانوا ناقمين على الامير بشير وفي جملتهم الامير محمود سلمان والامير علي منصور الشهابيين . واجتاح عثمان باشا بلاد المتن واكره اهلها على تسليم اسلحتهم . وهيج نهجه الامير

خليل في كسروان فجار على أهلها وقبض على معظم زعماء الثوار ما عدا الشيخ ابو نادر الخازن حيث كان قد فرّ الى قبرص فنفاهم الامير بشير الى سنار بالسودان

﴿ جلاء ابراهيم باشا عن سورية ﴾ اما محمد علي فلم يذعن لمشيئة الدول المتحدة وطرد سفراءها من قصره يوم اتوا تبليغه قرار المؤتمر . ولما ايقن بعد سقوط وزارة تيارس ان فرنسا مرغمة على التخلي عنه كانت بوارج الدول تطلق قنابل مدافعها على ثغور سورية وقد انزلت الى البر عشرة آلاف مقاتل من الانكليز والاتراك فوزعوا الاسلحة على العصاة فاشتد ساعدهم واستأنفوا القتال فاستظهر ابو سمرا البكاسيني على الامير مجيد شهاب ثم كسر الجيش المصري في عينانا شر كسرة . ودهم الكسروانيون عثمان باشا والامير خليل شهاب في وطا الجوز . وظلت الحرب سجالا بين الفريقين الى ان وصل ابراهيم باشا بجيشه ودحر الكسروانيين واطلق ايدي النهب في طول البلاد وعرضها واضرم النار في القرى والمزارع وبات كثير من المعاهد الدينية طعمة للنار . ولم يسع الامير بشير القاء السلاح واولاده واحفاده بين يدي ابراهيم باشا يقاتلون في صفوف جيشه . فعزله القائد العثماني من ولاية لبنان وعهد فيها بايعاز المستر فود الانكليزي الى الامير بشير قاسم ملحم شهاب ومده بالف مقاتل . فزحف على صرود كسروان لشد ازر الكسروانيين . فاموا شملهم واقضوا على الجيش المصري وهزموه وظلوا يعملون سيوفهم في اقفيته حتى حط رحاله في البقاع ثم اوغل في الانهزام الى المتن . وهنالك استتم العصاة تقسيم منه في بحرصاف واكرهوه على الفرار . وشعر الامير بشير بحرج موقفه فسار الى صيداء للتسليم . فتطرّق اليأس الى قلب ابراهيم باشا واسودت الدنيا في عينيه . وفي اثناء ذلك كان محمد علي اذعن لمشيئة الدول المتحدة وجعل السلطان ولاية مصر ملكا له ولذريته (١٨٤١) . فبعث يستدعي ابنه من سورية وصدع هذا بالامر وجلا بفلول جيشه عنها

﴿ مصير الامير بشير ﴾ اما الامير بشير فالقى سلاحه بين يدي خالد باشا والي صيداء فبالغ في اكرامه . واباح له عزت باشا القائد العثماني العام اختيار مكان لاقامته في غير سورية وفرنسا . فاختار جزيرة مالطة وابحر اليها مع حاشية كبيرة ولهذا لقب بالمالطي . ثم انتقل الى الاستانة وتوفي فيها سنة ١٨٥٠

وكان الامير بشير بطلا مغواراً تضرب الامثال بجرأته واقدامه وبسالته وكبر نفسه . وكان مهاباً يزري منظره بمنظر الاسد ويلقي الرعب في قلب محدثه أو الناظر



ابو سمرا غانم البكاسيني

من اكبر زعماء الثورة في حرب ابراهيم باشا مع اللبنانيين

ليه مهما كان جريئاً رابط الجأش . وكان على صلابة عوده حليماً حكيماً مدبراً يضع الاشياء في اماكنها عادلا منصفاً لا يؤخذ بهوى النفس . ومع ما كان مأثوراً عنه من شدة الوطأة على اعدائه فان السيف لم يكن عنده أول علاج يلجأ اليه لردهم الى طاعته أو لدره شرهم عنه . وكان شديد الولاء لاصدقائه شديد العطف عليهم في ساعات محنتهم . وكثيراً ما كان يستهدف المخاطر من أجلهم كما جرى له مع ابراهيم باشا حيث جازف بامارته وفقدها تأييداً له للمحافظة على عهده معه . وعلى الجملة فان هذا الامير العظيم الشأن تسامى في اخلاقه وقوة بصيرته واطواره وأعمـاله الى طبقة تعجز دونها مشاهير الشرق واقطابهم . ولو نشأ في غير سورية وفي غير الظروف التي احاطت به لذكر المؤرخون اسمه بجانب اسم قيصر والاسكندر وبومبايوس وغيرهم من كبار الفاتحين

* * *

خلف السلطان عبد المجيد أباه على عرش بني عثمان (١٨٣٩ — ١٨٦١) والفاتح المصري على أبواب الاستانة . فاراد أن يخرج الدولة من نطاق الخطر المضروب حولها وأصدر فرمان الاصلاح الشهير بخط كلخانة (نوفمبر ١٨٣٩) الذي ساوى فيه بين رعاياه وهو يرجو بذلك أن يستميل الدول اليـه فتنصفه في قضيته مع محمد علي . وقد ظفر ببغيته لاتفاق مصالح الدول المتحدة في المسألة المصرية مع مصلحة دولته . وفي أيامه انضم الفلاخ والبغدان الى ترنسلفانيا وألفوا بعد جهاد طويل مملكة رومانيا (١٨٤٨ — ١٨٥٩) . ثم نشبت حرب القرم بينه وبين الروس (١٨٥٤ — ١٨٥٦) فنصرته انكلترا وفرنسا عليهم وخرجت الدولة منها ظافرة وضمن لها مؤتمر باريس استقلالها بعـد أن عاهدت الدول على اجراء الاصلاح في بلادها . ثم وقعت مذابح الستين في لبنان وسورية (١٨٦٠) . فكانت تلك خاتمة محزنة . لكنه أحسن التدبير في دره الخطر الذي جرته على الدولة ومات مغبوطاً قرير العين وخلفه السلطان عبد العزيز (١)

---

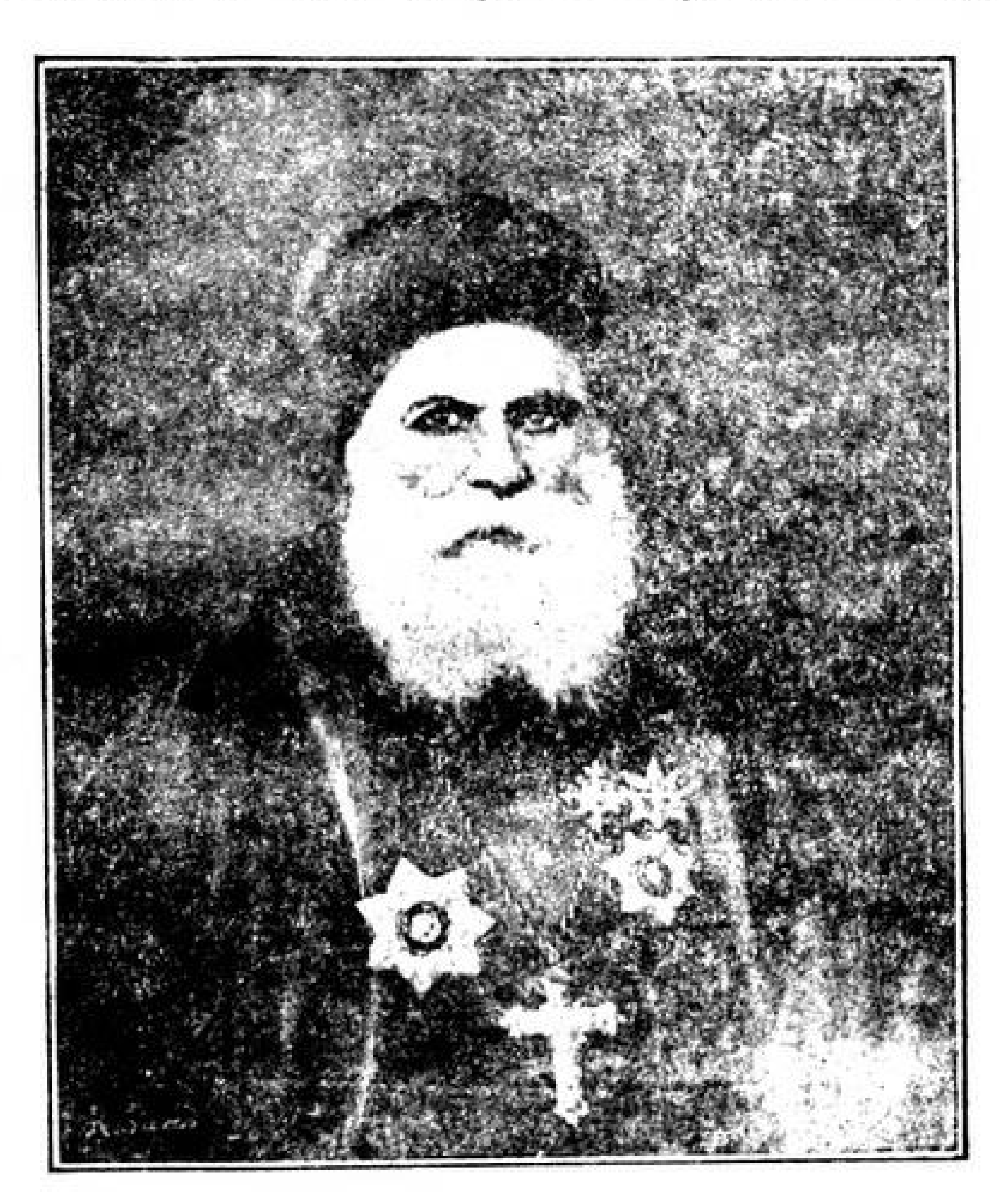
(١) كان الباعث على نشوب حرب القرم خلاف قام بين الروم واللاتين على الاماكن المقدسة في القدس . ولم يرق لروسيا جنوح الدولة له في مصلحة اللاتين مجاراة لنابوليون الثالث . فعرضت على انكلترا الاتفاق معها على تجزئة تركيا فخذلتها وانحازت الى فرنسا . ودارت رحى الحرب فانتصر الجيش العثماني في عدة معارك . وجازت الاساطيل الانكليزية والفرنساوية

﴿ الحروب الاهلية الاولى بين المسيحيين والدروز ﴾ استوى الامير بشير قاسم الشهابي الصغير على منصة الامارة اللبنانيــة والبلاد خارجة من حرب ابراهيم باشا واهنة العزيمة منهوكة القوى وفي قلوب الدروز شيء من الغل للمسيحيين يرجع عهده الى ما كان لهؤلاء من الشأن في ردهم على يد الامير خليل شهاب الى طاعة الفاتح المصري . فلم يستطع الامير بشير — وهذا شأن اللبنانيين من التخاذل والاضطراب — أن يرأب صدعهم ويلم شعثهم . ووقعت بينه وبين أعيان الدروز نفرة أدت بهم الى محاصرتهم له في دير القمر . وافضى ذلك الى فتنة كبرى بينهم وبين النصارى تعرف بالحركة الاولى (١٨٤١) . وقد تطايرت شظاياها الى أقاصي جنوب لبنان وذهبت بارواح كثيرة . ووصل مصطفى نوري باشا الى الجبل موفداً من الباب العالي لتنظيم شؤونه . فعزل الامير بشير وعرض على اللبنانيين قبول والٍ عليهم من رجال الدولة . فاذعن الدروز لنصيحته . أما النصارى فخيبوا أمله واحتجوا الى الباب العالي وسفراء الدول على محاولته خرق نظام الحكم في جبلهم على هذا الوجه المنكر المجحف بحقوقهم القديمة والمغاير لتقاليدهم الموروثة

وفي السنة التالية عهد في ولاية لبنان الى عمر باشا النمساوي العثماني . وسعى لاسترضاء الدروز والنصارى فخبط مسعاه لانه اقتصر في ارضاء الدروز على جعل أحد مدبريه منهم واعتقل اعيانهم فنقموا عليه . وولى الحمادية على جبيل والبترون والكورة وأصحابها يومئذ بنو الخازن فشق ذلك عليهم . وعدَّ النصارى اسناد قيادة الجند اللبناني الى أبي سمرا البكاسيني ويوسف أغا الشنتيري المسيحيين غير كاف لارضائهم وانصافهم . وباتوا والدروز سواء في الاستياء منه . واتفقوا على أن يولوا عليهم أميراً شهابياً يعاونه امير من اللمعيين ويدير شؤون ولايته إربعة مدبرين أثنان مسيحيان وأثنان درزيان . وشرعوا في مناوشة عسكر عمر باشا لطرده من البلاد . وفي أثناء ذلك وقعت بين آل حبيش وآل الدحداح في غزير مشاجرة عنيفة أسفرت عن قتل اربعة من أبناء الشيخ حمزة

البوسفور الى البحر الاسود وضربت ثغور روسيا . واحتلت النمسا امارتي الفلاخ والبغدان . ثم اشتبكت جيوش الدول المتحدة مع الروس في معركة هائلة أسفرت عن انتصارها عليهم . ثم هاجمت قلعة سبستوبول الشهيرة ووالت هجماتها عليها الى ان فتح الجنرال مكماهون الشهير حصن ملاكوف وسقطت القلعة في أيدي الحلفاء بعد ان استبسل حماتها في الدفاع . وأوغلت جيوشهم في املاك روسيا واكرهت القيصر على الصلح

وصرف الامير حيدر آخر سني حكمه مغبوطاً طيّب النفس . ووافته منيته سنة ١٨٥٤ ولا ذكر له فتقلد الولاية موقتاً ابن أخيه الامير بشير عساف الى ان صدر الامر العالي بتولية الامير بشير احمد اللمعي . وكان الامير حيدر ورعاً حازماً حليماً عادلاً عالي الهمة صادق العزيمة مقداماً تجلى هيبة الامراء على محياه باجمل مظاهرها .



البطريرك بولس مسعد

(١٨٥٤ — ١٨٩٠)

وقد تحلى باطيب المناقب وأسمى الفضائل ولهذا كان عهده في لبنان مباركاً ميموناً وهو من اكبر أمراء لبنان ومن أجلهم قدراً واكثرهم فضلاً . وقد عزز شأن النصرانية في لبنان وجمل معاهدها ورجالها في مقام دونه كل مقام

﴿ نكبة الخوازنة وانقضاء حكم الاقطاعات ﴾ تقلد الامير بشير الامعي زمام الحكم والسكينة النسبية سائدة جبل لبنان . غير أن البلاد كانت يومئذ في دور التطور وقد دب روح التمرد على الحكام الوطنيين في صدور العامة ففعل فيهما فعل النار في الهشيم . فنال الامير اللمعي من غائلة هذه الروح ما نال سواه من الحكام حيث أثار الكولونيل شرشريك الانكليزي خواطر اللبنانيين عليه . وتجلى هياجهم على أشدّه في المتن وجبة بشري وصرود كسروان وغزير . وما برح الخلاف بينه وبين خصومه يتفاقم حتى باتت البلاد في حال من الفوضى لا تحمد عقباها واضطر الباب العالي ان يقيله من منصبه (١٨٥٩)

على أن عزل الامير اللمعي لم يحل دون انتقامه من خصومه ولا سيما الخوازنة حكام كسروان . فتذرع بما آنسه من جنوح فريق منهم الى تعضيده لحمل هذا الفريق على ايغار صدور العامة عليهم والتآمر على انتزاع السلطة منهم . وقضى جواب والي بيروت لمن انتدبه الثوار من زعمائهم لرفع ظلامتهم اليه على البقية الباقية في نفوسهم من روح المسالمة وحوّل سورة الافكار الى فتنة كبرى حيث حمل الثوار على الخوازنة حملة شعواء بقيادة طانيوس شاهين الريفوني (١٨٥٩) وطردوهم من البلاد بعد أن فتكوا بجماعة منهم وأضرموا النار في دورهم . واستغاث كبراؤهم بيطريرك الموارنة — وهو يومئذ البطريرك بولس مسعد — وقنصل فرنسا فاتفقا على قمع الثورة واكراه الثوار على الكف عن مطاردتهم وردّ مسلوباتهم اليهم . ولولا توسطهما لتفاقم الخطب وعظم البلاء لان يداً قوية كانت تدس الدسائس طي الخفاء للجانبين حتى اذا أضناهم القتال وتولاهم العجز ملكت رقابهم وتحكمت فيهم تحكم السيد بعبيده طبقاً لما تقضي به مصلحة الدولة وسياستها التقليدية الخرقاء في الديار الشامية

﴿ الحرب الاهلية الثالثة بين النصارى والدروز ﴾ لم تكد تخمد جذوة الفتن في كسروان حتى عقبتها مذابح الستين الشهيرة (١٨٦٠) . تطايرت شرارتها الاولى من وادي شحرور حيث قتل الامير عباس قاسم الشهابي وأخيه الامير بشير آخر من تولى الامارة اللبنانية من بني شهاب . وعلى أثر ذلك نشبت في بيت مري فتنة شديدة أثارت النعرة الدينية في صدور اللبنانيين . فاضطرمت نار الثورة في جنوب لبنان وسورية ولا سيما في دمشق وحاصبيا وراشيا وزحلة . وتجلى الهياج على أشده في دير القمر حيث انحاز جنود الدولة الى الثوار وذبحوا من المسيحيين الف وخمسمائة نفس بعد

ان جردوا عنهم أسلحتهم غدراً وحيلة . وكان يوسف بك كرم أول من هب لدرء الخطر عن المنكوبين فزحف بنحو الفي مقاتل كالسيل الجارف على بلاد الشوف . وأشرف على زحلة وقد طوقها الدروز وأضرموا النار فيها فقفل راجعاً الى جونية عملا باشارة قنصل فرنسا وانصرف الى اعالة المنكوبين وكان قد اجتمع منهم هناك زهاء ثلاثين الف نفس . وقد هلك من النصارى في هذه المذابح أحد عشر الفاً



يوسف بك كرم

وعلى اثر ذلك أنفذ السلطان عبد المجيد فؤاد باشا الصدر الاعظم الى سورية لمعاقبة مثيري هذه الفتنة الهائلة . فشنق ونفى عدداً من أعيان دمشق وبيروت . وعرف بما كان ليوسف بك كرم من الشأن في اغاثة الذين سلموا من المذابح فعهد اليه في وكالة قائمقامية النصارى . وأرسلت الدولة الفرنساوية الى سورية باسم دول اوربا حملة عسكرية قوامها سبعة آلاف جندى بقيادة الجنرال بوفور والجنرال ديكور لاعادة الامن الى نصابه . واتبعتها الدول الخمس الكبرى فرنسا وانكلترا وروسيا وبروسيا والنمسا بلجنة دولية مؤلفة من خمسة مندوبين للمداولة في ما ينبغي لها ان تجريه حقناً للدماء ومنعاً لتجديد الفتن في لبنان . فاتفقوا بعد مناقشات طويلة لا محل لها هنا على سن

النظام اللبناني الحديث (١٨٦١) الذي قضى على نظام الاقطاعات وكان من حسنات الزمان وان اعتوره من النقص والابهام ما سوّغ للدولة التذرع بالقيود الاستبدادية التي تنطوي تحته للتحكم باللبنانيين على ما تشاء وتهوى

* * *

جلس السلطان عبد العزيز على العرش (١٨٦١ — ١٨٧٦) والدولة قائمة على محاربة الجبل الاسود . فواصل الحرب الى ان فتحه (١٨٥٨ — ١٨٦٤) . وقد زار القطر المصري (١٨٦٣) وباريس (١٨٦٧) . وتلا ذلك خروج السربيين عن طاعة الدولة وظفرهم بالاستقلال (١٨٦٧ — ١٨٧٧) . وفي عهده ثار أهل كريت على الدولة واكرهوها على منحهم عدة امتيازات أهمها اعفاؤهم من الجندية (١٨٦٩) . وخلع بمؤامرة والمشهور انه اغتيل في سراي طوبقبو (١٨٧٦) [1]

وخلف عبد العزيز السلطان مراد الخامس (١٨٧٦) فلم يملك الا أياماً معدودة حيث تولاه اضطراب عصبي أفضى به الى الجنون . فخلع ونودي باخيه عبد الحميد

تبوأ السلطان عبد الحميد عرش أجداده (١٨٧٦ — ١٩٠٩) والسلطنة محفوفة بالمخاطر والدول الاوربية تلح على الباب العالي في طلب الاصلاح . فرأى ان يضع لها نظاماً دستورياً شورويّاً يحول دون تعرض اوربا لشؤونها الداخلية . لكنه ما كاد يطمئن على عرشه حتى عبث بالدستور واغتال منشئه مدحت باشا أبا الاحرار المصلح الشهير وحل مجلس النواب الذي كان ألفه وقتئذ . فانبرت له روسيا واقترحت عليه اجراء الاصلاح على قاعدة عدها محطة بشأن الدولة ورفضها . فشهرت عليه الحرب

---

(١) مما يستدعي الانظار من تاريخ هذا السلطان انه لم يدرك في الحروب التي خاض غمارها غرضاً واحداً من اغراضه . فهو اولا الجبل الاسود فحال توسط روسيا وفرنسا دون اجهازه عليه . وظفر بقمع ثورة السربيين ولكن الدول الاوربية اكرهته على الاعتراف باستقلالهم . وشق عليه ضياع امارة السرب من يده فانتحل عذراً لاستئناف الحرب فقاومه الامير ميلان (١٨٧٦ — ١٨٧٧) وقضى مؤتمر برلين بتوسيع حدودها (ثم جعلت مملكة وسمي الامير ميلان ملكا عليها ثم اعتزل الملك وزار سوريا ولبنان وخلفه ابنه اسكندر وهو الذي قتل سنة ١٩٠٣ وافضى عرش السرب الى الملك بطرس الاول) وحاول هذا السلطان القضاء على الكريتيين فاخفق . ثم خلع ومات قتلا . فكان ملكه سلسلة مكاره وبلايا وضعته في طبقة دون طبقة السلاطين العظام وان يكن في سيرته ما يعد في حكم الحسنات كخروجه عن تقاليد السلطنة بزيارته اوربا وتجاوزه في مجاملة المسيحيين ورؤسائهم الدينيين حدود المجاملة المألوفة عند سلاطين آل عثمان

(١٨٧٧) وقهرته واكرهته على توقيع معاهدتي أدرنة وسان استفانو اللتين مهدتا السبيل لعقد مؤتمر في فينا (١٨٧٨) انتزع جانباً عظيماً من سلطة الدولة واستقلالها السياسي وجعل اوربا بمنزلة المشرفة عليها. وفي عهده نشبت في جزيرة كريت ثورة عظيمة افضت الى وقوع الحرب بين الدولة واليونان (١٨٩٧) وأوشك الترك ان يقضوا على استقلالهم لولا تصدي الدول الحامية لمملكة اليونان للغزاة ووقوفها في سبيلهم. وفي السنة التالية ظهرت المسألة المقدونية وتلتها ثورة اليمن (١٨٩٨—١٩٠٥) فعجزت الدولة عن قمعها واضطرت الى مصالحة الامام يحيى قبل ان يتاح لها اتمام سكة الحديد الحجازية التي مدتها لهذا الغرض (١٩٠٠ — ١٩٠٨) وقد ختم ملكه بانضمام كريت الى اليونان (١٩٠٦) واستقلال بلغاريا والروملي الشرقية استقلالاً تاماً وضم النمسا مقاطعتي البوسنة والهرسك الى املاكها (اكتوبر سنة ١٩٠٨) ففقدت الدولة بذلك بلاداً مساحتها ٥١ الف كيلو متر مربع وجزيرة مساحتها ٨٦١٨ كيلومتراً مربعاً. وقد اشتهر عبد الحميد بذكاء الفؤاد والدهاء النادر. ولكنه صرف ذكاءه ودهاءه في التفريق بين رعاياه فكانت القاعدة المرعية في الدول الاستبدادية: «فرق تسد» شعار دولته. وتفنن في اضطهاد المفكرين والمصلحين وقتل الانفس البريئة صيانة لحياته وعرشه. وارتكب في هذا السبيل من المنكرات ما ترتعد له الفرائص. ولولا ما صادفته جمعية الاتحاد والترقي من التوفيق في خلعه وزجّه في السجن لظل مالكاً رقاب رعاياه الى اليوم[1]

---

(١) كانت الحرب التي استفتح عبد الحميد بها ملكه وبالاً على الدولة حيث قهرها الروس برغم استبسال جيوشها ولا سيما في معارك بلفنا وقارص الشهيرة. وقضت معاهدة ادرنة التي تلتها بترقية البلغار الى امارة ممتازة وبمنح رومانيا الاستقلال السياسي. ثم جاءت معاهدة سان استفانو معززة لمطالب الروس المتعلقة باصلاح السلطنة العثمانية. وقضى مؤتمر فينا بانشاء ولاية الروملي الشرقية. وباحتلال النمسا للبوسنة والهرسك. وتخلي الدولة عن اردهان وقارص وباطوم لروسيا. وتأمينها الارمن على ارواحهم وارزاقهم!!!. وتأييد حق فرنسا في حماية المسيحيين في السلطنة العثمانية. وغير ذلك مما لم ينسخه هذا المؤتمر من الشروط التي اقرها مؤتمرا باريس ولندن (١٨٥٦ و١٨٧١) وعلى الجملة فان هذا المؤتمر جعل الدولة العثمانية تحت وصاية اوربا. غير ان عبد الحميد اتعظ بالعبر التي مرت به فاوقع الخلاف بين الدول الاوربية وأمن بطشها فانصرف الى تعزيز سلطانه. وحال خلافهن دون معاقبته على ما ارتكبه من الفظائع ولا سيما مذابح الارمن (١٨٨٨ و١٨٩٤) حيث اهلك منهم زهاء نصف مليون نفس وهو آمن على حياته وعرشه. ولولا توغله في اضطهاد المصلحين من رجال دولته واضطرار

وبعد خلع عبد الحميد نودي باخيه السلطان محمد رشاد (١٩٠٩). فاستسلم الى مشيئة الاتحاديين لضعفه ولانه صنيعتهم. فاستأثروا بالسلطة من دونه وجاروا وبغوا. فانقسم حزبهم على بعضه وخرج منه رجال الاصلاح الحقيقيين وألفوا حزب الائتلافيين. وشبت نار الفتن في اليمن والعسير وحوران والكرك وفي شمال سورية ولاسيما في اللاذقية والبقاع المجاورة لها وفي ولاية آطنه حيث ذبح الارمن ذبح الانعام. واغتنمت ايطاليا هذه الفرصة فحاربت الدولة وانتزعت منها جزر بحر ايجه وطرابلس الغرب (١٩١٢) ففقدت الدولة بذلك بلاداً مساحتها مليون كيلو متر مربع ما عدا الجزر المتقدمة. وهبت الدول البلقانية لمحاربة الدولة وانتزعت منها معظم املاكها في اوربا ولم يتركن لها فيها الا بقعة صغيرة حول الاستانة (١٩١٣) أما الائتلافيون فجعلوا غرضهم الاعتراف للعناصر العثمانية بحقوقها الطبيعية الموروثة واحترام لغاتها وأديانها وعاداتها فايدتهم وكثر أنصارهم خلافاً للاتحاديين فانهم جعلوا شعارهم تتريك هذه العناصر وابادة ما لا يستطاع تتريكه منها كما هو شأنهم مع العنصر العربي الذي تجلت نواياهم الخبيثة نحوه في الحرب الاوربية العظمى الناشبة اليوم بافظع أشكالها حيث قرروا ابادته بالسيف والجوع كما أبادوا من قبله العنصر الارمني (١٩١٥ — ١٩١٦) فدلوا بذلك على انهم ارتقوا في الجهل والهمجية على نسبة ارتقاء الامم الاخرى في العلم والمدنية

لبنان بعد نظامه الحديث

﴿ بين داود باشا ويوسف كرم ﴾ كان من حسنات نظام لبنان الحديث انه تعاقب على عرش بني عثمان في الحقبة التي تلت حوادث سنة ١٨٦٠ أربعة سلاطين وسورية في منزلة من الرخاء وخفضة العيش تغبطها عليها سائر الولايات العثمانية. وما تخلل هذه الحقبة من الاضطراب انما هو صفة ملازمة لكل تطور كالتطور الذي

رجال السياسة في فرنسا وانكلترا الى تأييدهم في بث دعوتهم لما استطاع هؤلاء المصلحون ان يرغموه على بعث دستور مدحت باشا من قبره (١٩٠٨) ويقبضوا على زمام السلطة بيده من جديد ويتاح لهم في ما بعد ان يخلعوه ويستبدوا بشؤون الدولة استبداداً قبيحاً منكراً كان استبداد هذا السلطان وآثره دونه شدة وفظاعة

مرّ بها على أثر تلك الحوادث المشئومة

أول من تولى أمارة لبنان بمقتضى النظام الحديث داود باشا الارمني (١٨٦١ — ١٨٦٨). تقلد زمامها وهو غريب عنها يجهل طبائع اللبنانيين وأحوالهم. وأراد مخالفة أحكام النظام بمضاعفة مال الجبل لابلاغه الى سبعة آلاف كيس «٣٥ الف ليرة» وهو ما لا يجيزه هذا النظام الا عند الضرورة القصوى «البند ١٦» فكان عمله هذا مهمازاً في جنب لبنان وهو خارج من فتنة الستين دامي القلب مقصوم الظهر يئن من فداحة الخسائر التي مني بها فيها. فهب اللبنانيون لمعارضته. وكان يوسف بك كرم ناقماً على داود لاصراره على تنفيذ خطته الاستبدادية على رغم النصائح التي بذلها له. فشد أزر المعارضين لخطته وانبرى لمنازلته. فقامت بينهما حرب عوان رأى هذا الحاكم فيها من بسالة خصمه وصلابة عوده وثباته في مواطن الصدام والطعان وعظم سطوته وسعة جاهه ونفوذه ما حمله على السعي لاسترضائه. ولكنه أخفق في مسعاه وذكر ما للوشايات من الشأن في قضاء الحاجات — وهو درس كان قد حذقه في الاستانة — فوشى به الى الجنرال بوفور بانه ممالئ لفؤاد باشا ضد الدولة الفرنساوية. وكاد الخصام الذي قام على اثر هذه الوشاية بين بطل لبنان وبين هذا القائد يفضي الى مالا تحمد عقباه لولا توسط بطريرك الموارنة. وأراد البطريرك حسم الخلاف بين كرم وخصمه فحال عناد داود وكبرياؤه دون ذلك واستأنف ابن كرم محاربته. وفي اثناء ذلك كان فؤاد باشا أتم مهمته في سورية. وخاف ان يفضي استرسال كرم في المقاومة الى تجدد الفتن في البلاد فاستصحبه الى الاستانة (١٨٦١). ولما جُددت ولاية داود باشا (١٨٦٤) عاد كرم الى لبنان ودخل اليه دخول الظافر. فابحر داود الى الاستانة في التماس معونة الدولة. وأدرك ابن كرم ما وراء الاكمة فعمد الى المسالمة لئلا يتهم بعصيانها. غير ان داود أبى الا القضاء على سطوته. فاستأنف بطل لبنان القتال وكسره في كثير من المعارك التي نشبت بينهما حتى اضطر داود ان يعرض عليه ولاية شمال لبنان الى نهر الكلب. فاباها وأصر على طرده من البلاد ودارت رحى الحرب. فاستظهر كرم على عساكر الدولة واستفحل أمره. وشعرت الدولة بعجزها عن كسر شوكته فاستغاثت بفرنسا واتفقت الدولتان على اخراجه من لبنان. فالقى سلاحه بين يدي البطريرك الماروني وابحر الى فرنسا حيث انزله نابوليون الثالث في ضيافته ورتب له جعلا سنوياً (١٨٦٧) وصرف بقية حياته في نابولي. وكان بطلا



سمعان آغا عقل

احد رجال يوسف بك الكرم المشهورين

عظيماً يشغل المقام الاول بين رجال السيف الذين نشأوا تحت سماء لبنان (١)
واذ خلا الجو لداود باشا جنح الى الاستقلال بولاية لبنان. وأدرك الباب العالي

---

(١) يوسف بك كرم هو ابن الشيخ بطرس كرم حاكم اهدن وملحقاتها . ولد سنة ١٨٢٥ ودرس علم السلاح على الشيخ عماد افاشم البطل العاقوري الشهير . وخلف أباه في ولاية أهدن . ثم تولى قائمقامية النصارى بعد مذابح سنة ١٨٦٠ . ولما جعل داود باشا متصرفاً على لبنان اعتزل الحكم وأثار عليه خواطر اللبنانيين لمخالفته نظام لبنان والقى عليه في رفضه قائمقامية جزين درساً في علم الوطنية زاده رسوخاً في نفس هذا الحاكم ثبات ابن كرم في معارضته ومقاومته له ولا سيما بعد ان كثر انصاره وانضوى تحت رايته مئات من ابطال لبنان حتى اضطره الى التماس الصلح على يد البطريرك بولس مسعد . غير ان وساطة البطريرك ذهبت بازاء عجرفة داود ومكابرته ضياعاً . وشق عليه فشله فيما كان يرجوه من تأييد البطريرك له فنقم عليه . وبلغ به الغرور الى اثارة الرأي العام ضده . وطاف لهذه الغاية في صرود كسروان وفي يده صولجان وعلى صدره صليب ذهبي امتهاناً لسلطة البطريرك . على ان تعاظم سطوة كرم بعد عوده الى لبنان اثاب هذا الحاكم الغبي الى رشده فعمد الى محاسنة خصمه وعرض عليه نصف ولاية لبنان . فأبت عليه وطنيته الاغضاء على القذى بهذا الثمن البخس وأصر على اخراجه من البلاد . ومما يسترعي الابصار من سيرة هذا البطل العظيم ان الدولة جردت عليه عشرة آلاف مقاتل بقيادة أمين باشا الاشقر . وهال هذا القائد ما كان من بطش بطل لبنان بمن ساقته الدولة لقتاله من الكتائب فاستدرجه الى اجتماع عقده في احدى قرى الجبة بحجة النظر في مطالبه وهو يريد الغدر به . غير ان كرم ادرك سر المكيدة فشهر حسامه وشق لنفسه طريقاً في قلب الجيش واقتض رجاله انقضاض الاسد على اعدائهم واعملوا السيف في رقابهم . ثم اجتمع على قتاله جيش آخر قوامه ١٨ الف مقاتل فلم يظفروا منه بطائل ودحرهم الى طرابلس ببضع مئات من رجاله . وجعلت العساكر تتأثره من مكان الى مكان فيباغتها ويبطش بها . وقد جرى له معها نوادر تعد في حكم المعجزات . من ذلك ما يروى من بطشه — وعدد رجاله لا يجاوز السبعة — بالف مقاتل من جنود بعلبك في وادي النسور على حدود بعلبك . وأحدق به الف جندي آخر على تسع جوقات فانتضى حسامه واخترق صفوفهم فانحسروا من طريقه كالذباب ونجا على قلة رجاله من الكمين الذي كانوا نصبوه له هناك . وعلى هذا المنوال كان ينازل جيوش الدولة فيكسرها واحداً بعد آخر وعدد رجاله لا يربى في أعظم المعارك التي خاض غمارها على أربعمئة مقاتل حتى جرى ذكر بسالته وبطشه مجرى الامثال . وما زال بين كر وفر حتى استفحل أمره واستجار الباب العالي بالدولة الفرنساوية . وكان قنصلها في بيروت يعد وجود كرم في لبنان خطراً على النفوذ الفرنساوي في سورية فسأله موافاته الى بكركي . وبلغه رسول القنصل ورحى الحرب دائرة بينه وبين عساكر الدولة في الوادي الفاصل بين القاطع وكسروان وعدد رجاله لا يجاوز اربعمئة وقد ابلوا في تلك الحرب بلاء عظيماً . فلبى دعوة القنصل ولا سيما انه كان للبطريرك يد في الامر . فأبقي في الاجتماع العظيم الذي

والدول الاوربية حقيقة غرضه من محاربة ابن كرم فاقيل من منصبه قبل ان يظفر بامنيته

﴿ ولاية فرنقو باشا ﴾ وخلف داود باشا على ولاية جبل لبنان فرنقو باشا الحلبي (١٨٦٨ — ١٨٧٣) . فسلخ سهل البقاع المشهور بخصبه عن لبنان وألحقه بولاية سورية . فحرم اللبنانيين بذلك مورداً من اعظم موارد ثروتهم . وسُدَّت أبواب الرزق في وجه السواد الاعظم منهم . فالتمسوه في الخارج . وازداد تيار المهاجرة . وكان متديناً صالحاً مستقيماً يحترم رجال الدين ويحافظ على كرامة العشائر اللبنانية . ولذلك كان عهده في لبنان عهد راحة وسكون . فلم ينازعه السلطة منازع ولم يقم في سبيله ما قام في سبيل سلفه من العقبات التي عجز عن تذليلها [١]

عقد في المقر البطريركي اذ في القائه السلاح بين ايدي ممثل فرنسا ورئيس طائفته ضماناً كافيا لصيانة كرامته واحرازه ثقة نابوليون وعطفه . فسلم وصرف رجاله مرغماً وخرج من المقام البطريركي في موكب عظيم لم يشهد لبنان موكباً اكثر منه ابهة وفخامة . وابحر الى فرنسا على مركب حربي . فرحب به نابوليون اعظم ترحيب واعجب بابائه وبسالته ووطنيته . ثم انتقل الى جزائر الغرب حيث صرف مدة . وعاد الى باريس وهو ينوي النفس بصرف بقية حياته فيها . فحال ما وقع بينه وبين وزير خارجية فرنسا من سوء التفاهم دون هذا الامر . وغادرها الى البلجيك فرومية فجزيرة كورفو . ثم أم نابولي واستقر فيها وعرض عليه وهو هناك ان يتجنس بالجنسية الايتالية فابى الا الاستمساك بجنسيته العثمانية . وأراد كامل باشا الصدر الاعظم مكافأته على هذا الولاء بمنصب سام يسند اليه في الدولة (١٨٨٧) . فاعتذر عن القبول لانه لم يكن يروق له الا خدمة وطنه لبنان الذي ضحى حياته في سبيله . وتوفي في نابولي (١٨٨٨) وعمره ٦٣ سنة ونقلت جثته الى اهدن في جبل لبنان . وكان كرم شجاعاً باسلاً عالي الهمة ماضي العزيمة . وقد اشتهر بورعه وصدق وطنيته . وبلغ به الزهد الى انه عقد العزيمة سنة ١٨٥٨ على انشاء رهبانية من علماء الدين وحبس املاكه عليها . فحالت حوادث سنة ١٨٥٩ و١٨٦٠ دون امنيته هذه . وقد صرف في أوربا زهاء عشرين سنة كان فيها مثال التقى والزهد والعفاف حتى اعجب الاوربيون بصفاته الممتازة وفضائله الرائعة

(١) لما زار البطريرك بولس مسعد عاصمة السلطنة كان في جملة ما فعله السلطان عبد العزيز لاكرامه انه عين فرنقو باشا مهمنداراً له . ورأى البطريرك من صفات مهمنداره هذا ما يؤهله للحكم فالتمس من السلطان تعيينه حاكماً للبنان وأجيب الى طلبه . وكان فرنقو يذكر الى منتهى ايامه هذا الفضل للبطريرك ويجل قدره كثيراً . وهذا ما زاده تديناً واحتراماً لرجال الدين . فاحرزوا في عهده من النفوذ ما لم يحرزوه على عهد غيره من المتصرفين الذين حكموا لبنان

﴿ ولاية رستم باشا ﴾ ثم جاء رستم باشا الايتالي (١٨٧٣ — ١٨٨٢). فاجرى العدل بين الناس وضرب على أيدي المقلقين . غير انه ضحى مصلحة لبنان خدمة للدولة . ذلك انه لما نشبت الحرب بينها وبين روسيا (١٨٧٧ — ١٨٧٨) اقتصد في مرتبات الموظفين ووضع رسوماً اضافية ليستغني بذلك عن المال الذي كانت تتقاضاه حكومة الجبل من صندوق النافعة سداً لعجز الميزانية . فعارضه رجال الدين وزعماء الشعب اللبناني وعصفت ريح الفتن في انحاء شتى من لبنان ولا سيما في الجنوب . فانبرى لاضطهاد الاكليروس ورماهم بالتهم الشائنة . وكتب الى الاستانة يعزو اليهم تحريض الشعب على الثورة . وخص بالذكر منهم المطران بطرس البستاني . فاوهم القنصل الفرنساوي انه في مقدمة المحرضين وانه يعمل على احباط مساعي فرنسا في لبنان . وأفضى تآمرهما عليه الى حمل الباب العالي على نفيه الى القدس بموافقة الدولة الفرنساوية (٣١ يوليو ١٨٧٨) . فعظم الامر على البطريرك والاعيان وازدادت سورة الاضطراب شدة حتى كادت تفضي الى فتنة عظيمة لولا ارجاع الدولتين له الى لبنان على مدرعة فرنساوية مكرماً محترماً . واستمر رستم باشا على مداداة الاكليروس الى نهاية حكمه . فلم يكن يستر لهم هفوة ولا سيما للرهبان حيث شهر عليهم حرباً عواناً . ولهم معه نوادر وحكايات لا يسمح المقام بذكرها . وكان على عدله واستقامته عنيداً صعب المراس . فكان عهده في لبنان حافلاً بالفتن والقلاقل . وبعد انتهاء مدته عينته الدولة سفيراً لها في لندن مكافأة له على خرقه نظام لبنان في سبيل مصلحتها

﴿ ولاية واصه باشا ﴾ وخلفه واصه باشا الالباني (١٨٨٢ — ١٨٩١) . وفي عهده شاعت الرشوة شيوعاً عظيماً . فاختلت الاحكام . وتطرق الفساد الى سائر دوائر الحكومة . وسادت الفوضى انحاء لبنان . فساءت احوال اللبنانيين وهجروا اوطانهم بالمئات والالوف الى حيث يأمنون شظف العيش وشر الاستبداد . ويُعرف حكمه بالحكم الكوبلياني نسبة الى صهره كوبليان الذي كان ملازماً له ملازمة الظل لصاحبه . واليه ينسب معظم الفساد الذي منيت به الحكومة اللبنانية في عهد هذا الحاكم

﴿ ولاية نعوم باشا ﴾ ثم تولى نعوم باشا الحلبي (١٨٩٢ — ١٩٠٢) تسبب

فرنقو باشا . فجاء لبنان والرشوة تقرض قلب حكومته . فجرى مع تيارها الجارف مع ما كان لديه من الوسائل لاستئصالها من جذورها . وهذا حذو سلفه في مضاعفة ايراد الحكومة من رسوم المحاكم . والضرر الذي ينشأ عادة عن مثل هذه الرسوم انما هو ضرر نسبي . ولهذا لم يلقَ في معارضة اللبنانيين له من الصعاب ما لاقاه سواه من الحكام لدى محاولتهم مضاعفة ايراد الحكومة من الضرائب . وفي أيامه نشبت فتنة في كسروان بين المسيحيين والمتاولة . فتصرف في حلها تصرفاً ممدوحاً لولاه لعظم الخطب وساءت العاقبة . وكان حليماً متأنياً متصفاً بالدهاء لطيف المعشر خبيراً باساليب السياسة . ولذلك عين بعد انتهاء مدته سفيراً للدولة في باريس ومات هناك

﴿ولاية مظفر باشا﴾ وخلفه مظفر باشا البولوني (١٩٠٢ — ١٩٠٧) . فاستوى على منصة الحكم وفي نفسه من حسن الاستعداد للسير بلبنان في سبيل الاصلاح ما جعل اللبنانيين يمنون النفس باطيب الاماني واحسن الامال . فافسدت حاشيته الامر عليه وأوقعته بدسائسها ومطامعها في ارتباك شديد احرج موقفه تجاه رؤساء الدين واعيان البلاد وقناصل الدول . وحاول الخروج من هذا المأزق الحرج ففشل وازداد قلقاً وارتباكاً . وجاء اتفاقه مع الجمعيات اللبنانية لناهضة الاكليروس والاعيان ضغثاً على ابالة . ونشأ بين الفئتين كثير من الفتن التي خيف معها من نشوب حرب أهلية عظيمة لو لم تداهمه منيته قبل انتهاء مدة ولايته . وكان هذا الحاكم عادلا حر الضمير نزيهاً . لكنه كان كثير التقلب سريع الحكم قليل التروي في الامور . فكان من أولئك الرجال الذين على نزاهتهم وعدلهم واستقامة ضمائرهم لا يصلحون للحكم في بلاد كلبنان لا بد لمن يتولى أمره أن يكون ادارياً بارعاً وسياسياً محنكاً حاذقاً اكثر منه نزيهاً عادلاً كما كان شأن هذا الحاكم

﴿ولاية يوسف باشا فرنقو﴾ ثم تولى يوسف باشا فرنقو الحلبي (١٩٠٨ — ١٩١٢) وهو ابن فرنقو باشا . فكان ضعيف الارادة غير انه كان نزيهاً حليماً . وفي مفتتح حكمه أعلن الدستور العثماني فاعترف به مرغماً . وخيّل الى فئة قليلة من اللبنانيين ان الولايات ستسبق لبنان بفضل دستور الترك شوطاً بعيداً في مضمار الاصلاح فسعت الى تمثيله في مجلس المبعوثان . ولكنها لم تكد تشهد فصلاً من المأساة الدموية

التي قام غلاة الترك بتمثيلها في عاصمة ملكهم حتى ثابت اليهم رشدها واذعنت لمن لم يبهر انظارهم سراب هذا الدستور اللامع الخلاب من قادة الرأي العام اللبناني « طالع كتاب لبنان والدستور العثماني » . وفي عهده نشأت عشرات من الجمعيات اللبنانية للمطالبة بالاصلاح فايدها واظهر رغبة صادقة في تحقيق امانيها وانالها ما التأم مع مصلحة البلاد من اغراضها

﴿ ولاية قيومجيان باشا ﴾ وخلفه قيومجيان باشا الارمني (١٩١٢ — ١٩١٤). فجاء الى لبنان والجمعيات اللبنانية في الداخل وفي الخارج تسعى سعياً حثيثاً في طلب الاصلاح وفي مقدمتها جمعية الاتحاد اللبناني في مصر وفروعها في اوربا واميركا . فمال الى تعضيدها . وبذلك احرز ثقة اللبنانيين فايدوه والتفوا حوله ولا سيما بعد ان زجت الدولة نفسها في الحرب الاوربية الحاضرة بجانب الدولتين الجرمانيتين حيث ابدى في كثير من المواقف الحرجة من الحزم والاخلاص في الدفاع عن نظام لبنان بما اجمع كلمة اللبنانيين على حبه والقاء امرهم بين يديه . ولكنه اوغر بذلك صدور الاتحاديين حقداً عليه فاكرهوه على اعتزال الحكم وعهدوا في ولاية لبنان الى علي منيف بك احد رجالهم المعروفين ثم الى اسمعيل حقي بك وهو حاكمه الحالي

﴿ الخلاصة ﴾ تلك خلاصة موجزة لتاريخ لبنان بعد تطوره الحديث يؤخذ منها ان هذه البلاد لم تنتفع بحكم المتصرفين الذين تعاقبوا على ولايتها على مقدار استحقاقها وقابليتها للاصلاح . وما توفر لمعشر اللبنانيين في هذه الحقبة من اليسر والرخاء انما كان بفضل النظام اللبناني الحديث حيث امنوا معه شر الفتن والحروب فانصرفوا الى الاخذ باسباب العمران . وكان لهم من ذكائهم الفطري وقابليتهم لسرعة الاقتباس ومضاء عزائمهم واخلاصهم في العمل وصدق وطنيتهم ما مكن المدارس الاجنبية التي انشأتها الرسالات الدينية في ربوع لبنان وسورية من تلقينهم تعاليم الاوربيين وبث مدنيتهم في بلادهم بسرعة مدهشة مهدت لهم سبل النهوض بها الى مستوى البلدان الراقية من الوجهتين الادبية والمادية . وكان للمهاجرة التي طغى تيارها في الربع الاخير من القرن الماضي نصيب وفير في هذا النهوض السريع حيث اتسع لهم المجال لاظهار مواهبهم الفطرية والمكتسبة في ما قاموا به في خارج بلادهم من الاعمال الخطيرة التي في كل فرع من فروعها المختلفة ما يكفي للدلالة على ان لهم من المقدرة

الذاتية ما تو فرون بصدق العمل وانتظامه وبشيء من القوة الخارجية أدبية كانت أو مادية ليلغوا ببلادهم الغاية القصوى من النجاح الذي ينشدونه لها وليجعلوا حالتها السياسية في مستوى حالتها الادبية التي أحرزت بها من عظم الشأن ما يغبطها عليه اكثر أصقاع الشرق رقياً وحضارة

سورية بعد نظام لبنان الحديث

اما سورية فقسمت بعد فتنة السنين الى ثلاث ولايات : ولاية بيروت . وولاية سورية وقاعدتها دمشق . وولاية حلب . وجعلت رتب ولاتها دون رتبة حاكم لبنان ايذاناً برفع سلطتهم عنه . وحلَّ محلهم في السيطرة على اعماله ومراقبة شؤون الجبل قناصل الدول الاوربية الموقعة لنظامه الحديث . فكانت وطأتهم عليه دون وطأة اولئك الولاة . فلم ينله على يدهم عشر معشار ما كان يناله من الضيم والاذى على يد رجال الدولة وعمالها

وقد كان دستور لبنان نعمة لسورية لانه غلَّ ايدي الولاة عن ارتكاب المنكرات فيها . وحال دون ما كانوا يتذرعون به من القلاقل التي كانت تقع في لبنان لاجتياحه والاستطراد الى اجتياح انحاء سورية وانزال الويلات باهلها ولا سيما ما كان داخلا منها في حكم أمراء الجبل . وكان لانتشار المدارس الاوربية بعد سن هذا النظام شأن خطير في ايقاظ شعور السوريين فاقبلوا عليها اقبالا عظيماً . وكانت المدارس الوطنية الى بدء تلك النهضة ابتدائية قاصرة على جهة دون أخرى . فاخذ الاهلون يتبارون في الاكثار منها وجروا فيها على لوائح المدارس الاجنبية فازداد الطلبة اقبالا على اقتباس الآداب الغربيـة ونشأ الجيل الجديد راقياً متنوراً ميالا الى انتهاج خطة الغربيين في ترقية البلاد واصلاح شأنها . وبدت هذه النهضة الادبية على أتمهـا في بيروت حتى باتت كعبة القصّاد من طلاب العلم ومنتجعي المعارف كما كان شأنها في عهد الرومان حيث كانت تلقب بمدينة العلوم والشرائع . وبرزت من ذلك اللسان الارضي الذي يقف عنده بحر الروم في الشرق كمنارة عظيمة تبعث أشعة العلم والعرفان الى ما وراء البحار ولا سيما الى أرض الفراعنة فكان للقبس الذي جاء هذه الارض منها شأن عظيم في تأسيس نهضتها الحديثة . ولولا سيف عبد الحميد الذي كان مصلتاً فوق رقاب المتنورين من رعاياه في الربع الاخير من القرن الماضي لدخل القرن

المشترون على سورية وهي سيدة الممالك الشرقية

ولقد حسب رجال جمعية الاتحاد والترقي لنهضة السوريين حساباً كبيراً ولا سيما بعد ان انشق عنهم حزب الائتلافيين وجاهر مندوبوه في المؤتمر العربي الذي عقد في باريس قبيل الحرب الاوربية باستمساكهم بحقوق العنصر العربي . فوضع الاتحاديون خطة منظمة للقضاء على الفكرة العربية في مهدها ولكنهم تسرعوا في اظهار نواياهم الخبيثة ومقاصدهم الملتوية . فافضت سياستهم الخرقاء الى اتحاد العرب والسوريين على اختلاف مذاهبهم الدينية ونزعاتهم السياسية واجماع كلمتهم على مناهضتهم واحباط مساعيهم . وبدأ في الحرب العظمى الناشبة اليوم تعصّب هذه الطغمة الضالة الطاغية للجنسية التركية بافظع اشكاله حيث اعلنت حكم الارهاب في الديار الشامية وحكّمت في قضية السوريين السيف الذي حكمته في قضية الأرمن ولكن على اسلوب جديد تأمن معه عاقبة بغيها . على انه لا يزال في العنصر العربي السوري من القوات الكامنة ما يكفي لتلقين هؤلاء الطغاة السفاحين درساً مفيداً يذكرهم بخاتمة ملك بايزيد وسليم الثالث ومصطفى الرابع ويريهم على وميض سيف النقمة المصلت فوق رؤوسهم في حلك الدور المظلم الذي يجتازونه تلك اليد الازلية التي تتحكّم في مصير الامم تكتب لهم في لوح القدر ما كتبته على قصر بيلشاصر الملك « مَنَا مَنَا تَقَيل وفَرْسِين » قبيل مصرعه وانقراض ملك الكلدان وقيام مملكتي فارس ومادي على انقاضه (١)

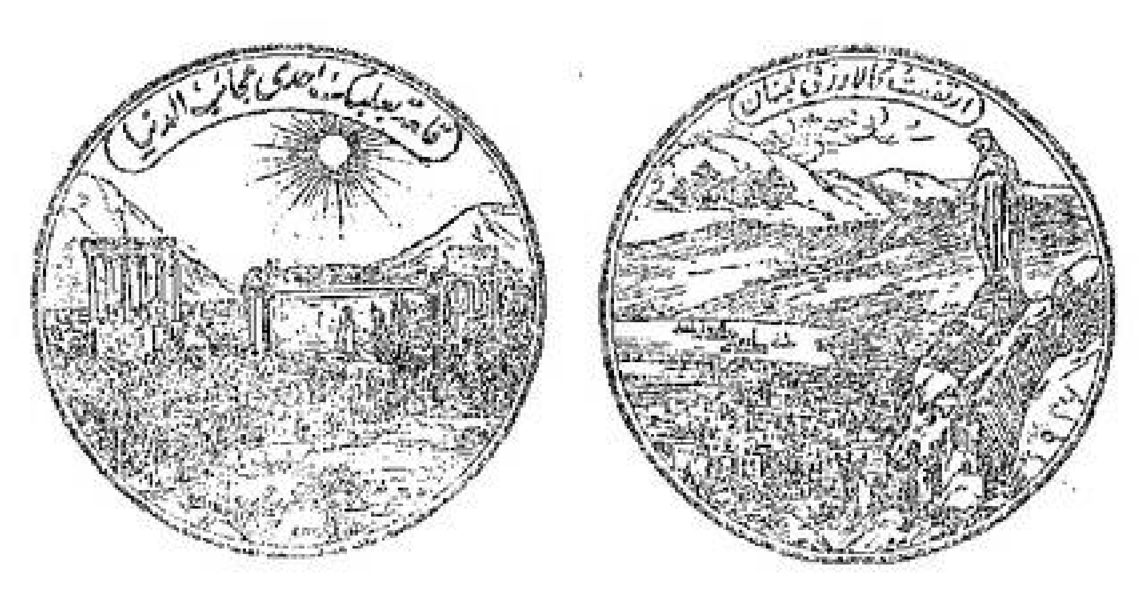
وما بطش الشريف حسين بن علي في الامس بجيش الطورانيين وقيام دولة بني هاشم على انقاض دولتهم في الحجاز وتمثيله معهم دور عمر بن الخطاب مع هرقل الملك يوم بطش هذا الخليفة بجيش الروم على يد بن الوليد وابن الجراح واقام دولة بني قريش على انقاض دولة بزنطية — ما ذلك الا مظهر من مظاهر الانقلاب العظيم الذي نتوقع حدوثه قريباً في الشرق الادنى . وقد جاء ابطال الاسد البريطاني في ارض الكلدان مذكراً اعقاب الكلدانيين بدور مادي وفارس مع بيلشاصر الملك . وجاء دخوله عاصمة العباسيين مجدداً مجد العرب ومبدّداً لذكرى الدور الفظيع الذي لعبه

(١) « نبوءة دانيال ص ٥ » وتفسير الاية : « منا : احصى الله ملكك وانهاه . تقيل : وزنت فوجدت ناقصاً . فرسين : قسمت مملكتك وأعطيت لمادي وفارس » . وفي ليلة ظهور هذه الآية قتل بلشاصر ملك الكلدان واستولى داريوس المادي على مملكته

هولا كو المغولي مع المستعصم العباسي (١٢٥٨) ومتمماً لهذا الانقلاب الذي سيكون فيه القضاء المبرم على سلطة الطورانيين في بلاد بني قحطان . ونحن اليوم نشهد الصراع عن كثب ولنا في العبر التي تجلت لابصارنا فيه على طريق بيت المقدس يكفي للدلالة على ان جهاد الحلفاء واستبسال العرب والسوريين الى مشيئة سيسفرا عن تحرير تلك الارض المقدسة من ربقة الحكم التركي الذي ابهظ عاتقها اربعة قرون كاملة ودخولها في عصر جديد اذا توافرت لها فيه اسباب العمران كان اسعد عصر مرّ بها منذ انبثاق فجر التاريخ الى الان

« المسعودي »

مصر يوليو سنة ١٩١٧



المدالية التذكارية السورية للحرب العظمى الاوربية

سنة ١٩١٧

فهرس الكتاب

صفحة

سورية في القرن الثامن عشر

صفحة

سورية في القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين

لبنان بعد نظامه الحديث

صفحة



(اصلاح خطأ)

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٣	٢٠	وزادت	وازدادت
٨	٢٦	في الجراكسة	الجراكسة في
١١	١١	سليمان الاول	سليمان الاول (١٥٢٠ — ١٥٦٦)
١٢	٢١	وتكاثر	وتكاثر
١٢	٣٢	بونس	يونس
١٣	١٩	١٥٦٤	١٥٦٦
١٦	٢٧	منصب	مناصب
١٧	٢٤	الرسطوني	الرمطوني
١٨	٩	حكمو	حكموا
١٨	١٨	١٥٩٤	١٥٩٥
٢٣	٢	وشيخ	والشيخ
٢٦	٧	وغزير فلم	وغزير — وكان بنو سيفا اغتصبوها منهم — فلم
٣١	١٨	استانف	استانف
٣١	٢٠	بن	عن
٣١	٢١	عيه عطش	عليه بطش
٣١	٢٣	مان	من
٣٤	٢٨	اغتيال السلطان	السلطان اغتيال
٣٥	١٢	وتخلى له من	وتخلى له عن
٤٨	١٥	تسويضاً عن	تعويضاً من
٥٦	٥	المسفيين	المعنيّين
٦٣	٢٥	الامواء	الامراء
٦٥	٩	تأييداً له للمحافظة:	تأييداً له ومحافظة
٦٥	٢٦	قانتصر	فانتصر
٦٥	٢٦	الاساطبل	الاساطيل
٦٩	٥	شرشريك	شرشر بك